مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم وتنشير البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

العدد السادس السنة الثالثة رجب ١٤٤٠هـ الموافق مارس ٢٠١٩م

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص ٢٩]

موضوعات العدد:

- أسلوب المقابلة في سورة الرعد - دراسة تحليلية
  أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي
- دلالة السياق القرآني وأثرها في توجيه معاني الآيات
  من خلال كتاب «التحرير والتنوير» للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)
  أ. أحمد يزيد بازرك الله
- حماية القرآن للوعي الفكري لدى الشباب
  في ظل تحديات وسائل التواصل الحديثة
  الباحث: أ.د. محمد عبد الدايم علي سليمان الجندي
- دلالات ومقاصد مصطلح الفرج في القرآن الكريم نماذج تطبيقية
  أ. بسمة عبد المجيد مترات
- أفعال الخلق والإيجاد في القرآن ودلالاتها
  أ.د. الأمير محفوظ محمد أبو عيشة
- تقرير عن رسالة علمية بعنوان:
  مهارات تدبر القرآن الكريم لدى معلمي القرآن
  بالمرحلة المتوسطة ومعوقات استخدامها
  أ. خالد بن حسن السهيمي
- تقرير عن معهد مكون بمعلمات القرآن الكريم «تدبر»
- التقرير عن المؤتمر القرآني الدولي السنوي «مقدس ٨»
  تحت شعار: «إسعاد الإنسان بهدى القرآن»

مجلة تدبر

البحث الثاني

دلالة السياق القرآني وأثرها في توجيه معاني الآيات من خلال كتاب "التفسير البياني" للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

أ. أحمد بزيد بارك الله

باحث في سلك التكوين العالي المعمق (الماجستير)
بمؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا
بالرباط/المملكة المغربية، مسلك: مراعاة المآل في العلوم الاسلامية.

النتاج العلمي:

- الهدى المنهاجي في الدراسات القرآنية المعاصرة: مشروع العلامة المغربي الشاهد البوشيخي أنموذجا "بحث علمي محكم منشور بمجلة الدارسات الاسلامية، قسم العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية والحضارة، جامعة عمار اثليجي الأغواط بالجزائر، العدد ٩.

- كتاب قواعد التدبر الأمثل للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: وصف لمعاقده وتصنيف لقواعده وفق أنواع أصول التفسير" بحث في مادة أصول التفسير، الفصل الدراسي الأول من سلك الماجستير بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.

- النظر المآلي من خلال الأمثال القرآنية، بحث في مادة أسس النظر المآلي في القرآن الكريم، الفصل الدراسي الثاني من سلك التكوين العالي المعمق (الماجستير) بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.

- البريد الإلكتروني: barikbez@hotmail.com

مجلة تدبر

مستخلص البحث

أهمية وأهداف البحث:

لا يخفى على المتأمل في التراث التفسيري للعلماء والأئمة من سلف الأمة وخلفها، حضور اعتبار السياق في تفسير نصوص الكتاب العزيز، وتبعًا لذلك يأتي هذا البحث محاولًا الكشف عن معالم الاعتماد على هذه القرينة في التفسير، وأثرها في التوجيه والترجيح بين معاني الآيات من خلال كتاب (التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن)، معتمدًا في ذلك منهجًا متكاملًا يزاوج بين أدوات الوصف والاستقراء والتحليل، محاولًا الكشف عن مكنونات هذا الكتاب ومضامينه ومعاقده ومصادره، ويتعمق البحث كذلك في تحليل السياق وأنواعه وأدواره عند الدكتورة عائشة عبد الرحمن، معضدًا ذلك بأمثلة من تفسيرها لبعض الآيات، ثم يحاول استقراء مواطن اعتماد المؤلفة فيه على السياق في تفسير الآيات القرآنية، والترجيح بين المعاني والأقوال التفسيرية المختلفة بشأنها، ونقدها في ضوء ذلك.

أهداف ومقاصد البحث:

يروم البحث عدة غايات ومقاصد نجملها في العناصر الثلاثة التالية:

- **أولًا:** بيان أهمية دلالة السياق في التفسير وأثرها في توجيه معاني الآيات.
- **ثانيًا:** التعريف بالدكتورة عائشة عبد الرحمن وكتابها التفسير البياني.
- **ثالثًا:** الكشف عن أثر اعتبار دلالة السياق في نقد الأقوال التفسيرية، وترجيح معاني الآيات من خلال تفسير بعض السور، من خلال كتاب التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن.

إبراز تنوع أدوار السياق في توجيه معاني الآيات، والترجيح بين الأقوال التفسيرية.

نتائج البحث:

لقد خلص البحث في النهاية بعد استقراء وتتبع معالم ومناحي إعمال المؤلفة لقرينة السياق القرآني، واعتبارها في توجيه وترجيح وبيان معاني الآيات للنتائج والخلاصات التالية:

◈ **أولًا:** عناية الدكتورة عائشة بدلالة السياق القرآني في تفسيرها للآيات، وتناولها لجميع السور التي اشتمل عليها كتابها بجزأيه يدل على أهمية ومركزية اعتبار الدلالة السياقية في منهجها التفسيري، ويزداد هذا المعنى وضوحًا حين نجد اعتمادها الكثير والمطرد على قرينة السياق في الحجاج، ومناقشة أقوال المفسرين، وقبول أو رفض بعضها تبعًا لانسجامها، أو مخالفتها لصريح السياق، مقاليًا كان أو مقاميًا، ويدل على ذلك عبارات كثيرة من مثل قولها (وهو ما يأباه السياق)، أو (مما لا يحتمله المقام)، أو (ملائم لجو الموقف).

◈ **ثانيًا:** تتعدد أنواع السياق القرآني في كتاب التفسير وتتنوع تبعًا لموضوع السورة ومقتضى الآيات المتناولة، وفي ضوء ما وقفنا عليه يتبين أن هذا التنوع يخدم المعنى المراد ترجيحه أو بيانه، ولا تناقض ولا تنافر بين نوع السياق القرآني المستدل به من لدن المؤلفة والمعنى الذي تشير إليه الآية، بل السياق مؤيد ومرجح له وملتئم معه تمام الالتئام وغاية الانسجام.

◈ **ثالثًا:** للسياق القرآني في تفسير بنت الشاطئ أدوار كثيرة منها: الترجيحي، والتعليلي، والحجاجي، وتخدم جميعها منهج المؤلفة وأطروحتها السياقية في تفسير الآيات، وقد تبين اعتمادها الكثير عليها في توجيه أقوال

المفسرين ورد بعضها ورفضه، كما تبين أثرها في توجيه معنى الآية بما ينسجم مع مقتضاها، وما تحتف به من قرائن سابقة (سباق الآيات أو ورد ما قبلها)، أو لاحقة (لحاق الآيات أو ورد ما بعدها).

◈ **رابعًا:** يمكن أيضًا ملاحظة أمر مهم في أثناء الحديث عن الخلاصات المستفادة من هذه الدراسة؛ وهو غنى المصادر المعرفية والمناهل العلمية عند المؤلفة في بناءها للحجة السياقية للآيات: فهي تنطلق من الاستعمال القرآني للفظ، و تنهل من آراء كتب اللغة العربية، وتأخذ من أقوال المفسرين وآراءهم، كما تستعين أيضًا بأسباب النزول وترتيب السور حسب ذلك، وكل هذا مما يقوي حجتها البيانية في توجيه معاني الآيات وربطها بالقرائن والسياقات.

الكلمات المفتاحية: السياق – بنت الشاطئ – السياق القرآني.

مجلة تدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى الأواب، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، ذوي الألباب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المئاب.

وبعد:

كان وما يزال فهم النصوص الشغل الشاغل للعلماء الراسخين والخبراء الدارسين، باعتباره الهدف والغاية من قراءتها وتدبرها، ولا ريب أن من أهم الوسائل والقواعد المعرفية المعينة على بلوغ هذا المرام: قاعدة السياق، فهي مبدأ ومقوم جوهري مهم في تأويل معنى النص، وتوجيه مقاصد ودلالات الخطاب.

ويُستعمل مصطلح السياق في مجالات علمية، وسياقات معرفية وتداولية متعددة[1]، ترتبط جميعها بتحليل الخطاب وفهم معانيه ودلالته، ويهمنا منها في هذا المقام مجال النصوص الشرعية وتفسيرها.

وقد اعتنى الأصوليون وأئمة التفسير بهذه القرينة وما ترشد إليه من دوال في فهم المراد من كلام الله تعالى، سواء بتأكيد المعنى المتبادر منه، أو منع تأويله، أو ترجيح بعض المقاصد على بعض، أو تبيين معاني الجمل التي يكتنفها غموض، وفي ذلك توجيه وتسديد لمعنى النص نحو غايته المقصودة.

ومبنى اعتبار السياق عند العلماء هو أن (كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزؤا، ألا

(١) دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، محمد إقبال عروي (ص ٢٥).

ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا نحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول؛ فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله ﷺ؟) [1].

و في ضوء ذلك قرر الأصوليون وعلماء العربية أن معرفة السياق من طرق استقراء المعاني والدلالات، وجعلوا لذلك قاعدة سموها "الحكم بالمدلول المسوق فيه على المراد من المسوق" أي على دلالته وما يستفاد منها على الوجه الراجح لا المرجوح والمحتمل، وردوا بناءً على هذا الأساس الدلالي وجوهًا كثيرة من الاستدلال المفيد لمراد المستدل ظاهرًا بحكم السياق وسبب الورود[2]. فمثلاً من المعاني المتبادرة إلى الذهن الذم المنسوب للشعراء في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وعند تدبر سياق ورود الآية يتبين أن الكلام ليس ذمًا للشعراء بحكم السياق والقرينة، فالسياق هو نفي دعوى المشركين القائلة ببشرية القرآن واختلافه، وهو يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. ففيه نفي لتقول القرآن وعدم إنزاله، لا ذم للشعراء مطلقًا، إذ في الشعر من الحكم والأمثال وبدائع القول ما لا يأتي عليه المداد عدًّا، وذلك بقرينة قول النبي ﷺ: «**إن من الشعر لحكمة**» [3] أي: قولا صادقًا مطابقًا للحق[4].

(١) الموافقات، الشاطبي ٣/ ٤١٩-٤٢٠.

(٢) "السياق وأهميته في سلامة الاستدلال وتحديد مطلوب الخبر"، أنس وكاك، كتاب أعمال الندوة الدولية للرابطة المحمدية للعلماء، بعنوان: (أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام)، ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء، وما يكره منه، الحديث رقم: ٦١٤٥.

(٤) أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام. ص ٤٤٥-٤٤٦.

وفي ضوء أهمية القرينة السياقية في سلامة الاستدلال على معاني الآيات؛ دأب الأئمة من المفسرين على النظر في سياق ورود الألفاظ والكلمات، ومناسبة الدلالات لبعضها، ومراعاة السياق في ترجيح المعاني المحتملات، أو تقرير الواضحات، يقول الإمام العز بن عبد السلام مشيرًا إلى بعض وجوه فوائد السياق: (السياق مرشد إلى تبين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحًا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمًّا، فما كان مدحًا بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذمًّا واستهزاءً وتهكمًا بعرف الاستعمال) [1].

ويمثل لهذا بقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]، ومعناه: الذليل المهان، لوقوعه في سياق الذم، وكذلك قول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]، أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه، وكذلك: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٧]، لوقوعه في سياق ذمهم بإضلال الأتباع) [2].

❁ أهمية البحث ومنهجه وأهدافه وخطته:

☜ أهمية البحث ومنهجه:

لا يخفى على المتأمل في التراث التفسيري للعلماء والأئمة من سلف الأمة وخلفها حضور اعتبار السياق في تفسير نصوص الكتاب العزيز، وتبعًا لذلك يأتي هذا البحث محاولًا الكشف عن معالم الاعتماد على هذه القرينة في التفسير وأثرها في التوجيه والترجيح بين معاني الآيات من خلال كتاب **(التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن)**، معتمدًا في ذلك منهجًا متكاملًا يزاوج

(١) الإمام في بيان أدلة الأحكام، العز بن عبد السلام، (ص ١٥٩-١٦٠).

(٢) نفسه (ص ١٥٩-١٦٠).

بين أدوات الوصف والاستقراء و التحليل، محاولًا الكشف عن مكنونات هذا الكتاب ومضامينه ومعاقده ومصادره، ويتعمق البحث كذلك في تحليل السياق وأنواعه وأدواره عند الدكتورة عائشة عبد الرحمن، معضدًا ذلك بأمثلة من تفسيرها لبعض الآيات، ثم يحاول استقراء مواطن اعتماد المؤلفة فيه على السياق في تفسير الآيات القرآنية، والترجيح بين المعاني والأقوال التفسيرية المختلفة بشأنها ونقدها في ضوء ذلك.

أهداف البحث:

يروم البحث عدة غايات ومقاصد نجملها في العناصر الثلاثة التالية:

- **أولًا:** بيان أهمية دلالة السياق في التفسير وأثرها في توجيه معاني الآيات.
- **ثانيًا:** التعريف بالدكتورة عائشة عبد الرحمن وكتابها التفسير البياني.
- **ثالثًا:** الكشف عن أثر اعتبار دلالة السياق في نقد الأقوال التفسيرية، وترجيح معاني الآيات من خلال تفسير بعض السور من كتاب التفسير البياني.

خطة البحث:

ينتظم تناول موضوع البحث في فصلين رئيسيين، يندرج تحت كل واحد منهما مباحث، وتحتها مطالب وفقا للخطة التالية:

الفصل الأول: دلالة السياق القرآني: مفهومها وأنواعها.

المبحث الأول: مفهوم دلالة السياق القرآني لغةً واصطلاحًا.

المبحث الثاني: أنواع دلالة السياق القرآني.

الفصل الثاني: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات من خلال كتاب (التفسير البياني) للدكتورة عائشة عبد الرحمن.

المبحث الأول: التعريف بكتاب (التفسير البياني).

المبحث الثاني: أنواع السياق القرآني و أدواره في تفسير الدكتورة عائشة عبد الرحمن.

المبحث الثالث: أثر السياق القرآني في توجيه معاني الآيات ضمن سورتي الضحى، والشرح.

المبحث الرابع: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات في سُور: العاديات، والبلد، والتكاثر.

المبحث الخامس: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات في سورتي العلق، والعصر.

وقبل سبر أغوار قضايا البحث ومحاوره، يحسن أن نقدم تعريفًا لمؤلفة الكتاب موضوع الدراسة، الدكتورة عائشة عبد الرحمن.

التعريف بالدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

هي عائشة بنت عبد الرحمن الشهيرة ببنت الشاطئ[1]، ولدت بإحدى قرى دمياط بمصر سنة ١٩١٣م، ونشأت في بيت عرف بالعلم والصلاح والتصوف؛ حيث كان أبوها أزهريًا متصوفًا[2].

بدأت دروسها في سن الخامسة، كما أنها تمكنت من حفظ القرآن

(١) العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، محمد العلاونة، (ص ١٠٠).

(٢) تقول في مقدمة كتابها (مع المصطفى ﷺ) متحدثة عن والدها المتصوف وأثره في تربيتها وتنشئتها الدينية، وارتباطها المبكر بالقرآن الكريم: "مع المصطفى ﷺ عشت من يوم مولدي، آيات معجزته كانت أول ما يصل إلى سمعي مع نور الفجر، يتلوها والدي التقي العابد رضي الله عنه في تهجده وصلاته، وسيرته الزكية العطرة كانت أنس دنيانا، والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية كانت أول ما لمس وجداني وأرهف إحساسي من يوم أن بدأت خطوتي الأولى على درب الحياة)، كتاب مع المصطفى ﷺ (ص ١١).

الكريم كاملًا في سن مبكرة، واستطاعت أن تنهي دراستها الابتدائية بتفوق، وكافحت كفاحًا مجيدًا حتى تكمل تعليمها، والتحقت بمدرسة المعلمات بطنطا، وحصلت على شهادتها سنة ١٩٢٩م، ثم انتقلت إلى القاهرة، وعملت في وظيفة كاتبة بكلية البنات بالجيزة، واستطاعت في تلك الفترة أن تراسل عددًا من الصحف، ونشرت مقالات في مجلة النهضة النسائية التي كانت ترأسها لبيبة أحمد، ونشرت مقالات في الأهرام تحت اسم مستعار هو **"بنت الشاطئ"**، وحصلت على شهادة البكالوريا التي تؤهلها لدخول الجامعة بعد سنوات من الجهاد و المثابرة[١].

التحقت بالجامعة المصرية، وتخرجت في كلية الآداب قسم اللغة العربية سنة ١٩٣٩م، وحصلت على شهادة الماجستير سنة ١٩٤١م، كانت بعنوان "الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري"، وفي عام ١٩٥٠م حصلت على شهادة الدكتوراه في تحقيق "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري.

تزوجت عائشةُ أمينَ الخولي[٢]، ونصحها بدراسة الأدب واللغة التي نزل بها القرآن الكريم، فإذا تحقق لها ذلك اتجهت إلى مجال الدراسات الإسلامية، فاستجابت للنصيحة وأمضت ٢٠ عامًا في دراسة الأدب قبل أن تخوض مجال الدراسات الإسلامية[٣].

---

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، أعضاء ملتقى أهل الحديث، على شبكة الإنترنت.

(٢) أمين الخولي (١٨٥٥-١٩٦٦ م): من علماء الأزهر بمصر، له مؤلفات، منها: (فن القول)، (مالك بن أنس)، (الأزهر في القرن العشرين)، (الأدب المصري)، (الجندية في الإسلام)، (من هدي الرسول)، (مشكلات حياتنا اللغوية). انظر ترجمته في كتاب أفرده الدكتور حسين نصار بعنوان: (أمين الخولي: ص ٧)، وكتاب (أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد، تأليف يمنى طريف الخولي: ص ٢٢)، و(الأعلام للزركلي ٢/ ١٦).

(٣) المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، (إعداد أعضاء ملتقى أهل الحديث، على شبكة الانترنت).

تدرجت في المناصب الجامعية حتى أصبحت أستاذة التفسير والدراسات العليا بجامعة القرويين بالمغرب، والتي درّست بها حوالي ٢٠ عاما، كما حاضرت في عدد من الجامعات بالعالم العربي، وإضافة لذلك فقد حصلت على عدة جوائز تقديرية منها: جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٨م، وجائزة الأدب من الكويت سنة ١٩٨٨م، وجائزة الملك فيصل سنة ١٩٩٤م.

ولعائشة عبد الرحمن إنتاج علمي وأدبي كبير اقترب من أربعين كتابًا، شملت الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية، والحديثية، والقرآنية منها:

❖ في مجال الأدب:

- لها عدة أعمال أدبية، منها: "سيد العزبة: رواية مصرية واقعية"[١]، و"رجعة فرعون"[٢]، و"امرأة خاطئة"[٣]، ومجموعتين قصصيتين: الأولى نشرت بعنوان: "سر الشاطئ"[٤]، والثانية حملت اسم: "صور من حياتهن: في جيل الطليعة من الحريم إلى الجامعة"[٥]، كما كتبت رواية "على الجسر: رحلة بين الحياة والموت"[٦] سجلت فيه طرفًا من سيرتها الذاتية، وحررتها بعد وفاة زوجها أمين الخولي.

- ولها أيضًا كتاب مهم بعنوان: "قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر"[٧].

(١) طبع ضمن سلسلة الكتاب الفضي القاهرة، سنة ١٩٥٢م.
(٢) طبعة دار المعارف القاهرة، ١٩٤٨م.
(٣) سلسلة الكتاب الفضي القاهرة، سنة ١٩٥٢ م.
(٤) سلسلة الكتاب الذهبي، القاهرة، ١٩٥٢م.
(٥) المكتبة العربية، القاهرة ١٩٥٧م.
(٦) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
(٧) الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٠م.

❖ في مجال تحقيق النصوص:

قدمت للمكتبة العربية والإسلامية عدة تحقيقات وشروح منها:

- تحقيق وشرح "رسالة الغفران"[١] لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ).
- تحقيق رسالة "الصاهل والشاحج" [٢] لأبي العلاء المعري.

❖ في مجال الدراسات القرآنية:

- الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية[٣].
- مقال في الإنسان: دراسة قرآنية[٤]. الشخصية الإسلامية دراسة قرآنية[٥].
- من أسرار العربية في البيان القرآني[٦].
- القرآن والتفسير العصري.

❖ في السيرة والتراجم:

- مع المصطفى ﷺ.
- نساء النبي ﷺ.
- تراجم سيدات بيت النبوة.

---

(١) الطبعة التاسعة دار المعارف ١٩٧٧م. مصر.

(٢) حققت هذه الرسالة عن نسختين أصيلتين بالخزانة الملكية بالرباط، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م. دار المعارف. مصر.

(٣) الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٤م.

(٤) الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٦٩م.

(٥) الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ١٩٨٠م.

(٦) طبع سنة ١٩٧٢م.

الفصل الأول

دلالة السياق القرآني مفهومها وأنواعها

❁ المبحث الأول: مفهوم دلالة السياق القرآني وأنواعها:

المطلب الأول: دلالة السياق لغةً واصطلاحًا:

التعريف بمفردات (دلالة السياق) في اللغة:

الدلالة لغة: جاء في مادة (دل) قول ابن فارس: (الدال واللام أصلان: أحدهما إبانة الشيء بأمارة تتعلمها، والآخر اضطراب في الشيء. فالأول قولهم: دللت فلانًا على الطريق. والدليل: الأمارة في الشيء. وهو بين الدلالة والدلالة، والأصل الآخر قولهم: تدلدل الشيء، إذا اضطرب) [١].

وورد في المفردات تعريف الدلالة على أنها: (ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، الرموز، والكتابة، والعقود في الحساب) [٢].

و في لسان العرب لابن منظور: (دله على الطريق يدله دَلالة ودِلالة ودُلولة) [٣]، فهي إذن مثلثة الفاء كما عند الفيروز آبادي في القاموس المحيط [٤].

السياق لغة: أصل كلمة السياق سِواق، فقد قلبت الواو ياء لكسرة السين [٥]، و هما مصدران من ساق يسوق [٦]، و قد ورد في لسان العرب بمعان عدة، منها:

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: (٢/ ٢٥٩-٢٦٠).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: (١/ ١١٦-١١٧).
(٣) لسان العرب، ابن منظور: (١١/ ٢٤٩).
(٤) القاموس المحيط، الفيروز أبادى: (١/ ١٠٠).
(٥) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي: (٢٥/ ٤٧٥).
(٦) لسان العرب، ابن منظور: (١٠/ ١٦٧).

معنى الحدو والتتابع: قال ابن فارس: (السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء)[1]، وقال ابن منظور: «ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقًا وسياقًا، وهو سائق وسواق، شدد للمبالغة، وحاد يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائه، وسواق الإبل يقدمها، ومنه: رويدك سوقك بالقوارير. وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقًا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة»[2].

- **ومعنى نزع الروح:** «فيقال فلان في السياق أي في النزع»[3]، و«السياق: سوق الروح من أرجاء البدن إلى الخروج منه»[4].

- **و بمعنى المهر:** قال الفيروز آبادي: «السياق، ككتابٍ: المَهر»[5] وجاء في لسان العرب: «ساق إليها الصداق والمهر سياقًا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما. وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها. والسياق: المهر»[6].

- **معنى التسلسل بلا انقطاع،** قال الجوهري: (يقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على إثر بعض ليست بينهم جارية)[7].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس: (مادة سوق ٣/ ١١٧).
(٢) لسان العرب، ابن منظور: (١٠/ ١٦٦).
(٣) لسان العرب، ابن منظور: (١٠/ ١٦٧).
(٤) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي:(ص ٢٠٠).
(٥) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: (١ / ٨٩٥).
(٦) لسان العرب، ابن منظور: (١٠/ ١٦٦).
(٧) صحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: (٤/ ١٤٩٩).

- **معنى الإرسال:** «يقال ساق الله إليه خيرًا ونحوه بعثه وأرسله، وساقت الريح التراب والسحاب رفعته وطيرته»[(١)].

- **معنى سرد الكلام وتتابعه:** فيقال «ساق الحديث: سرده وسلسله، وإليك يساق الحديث: يوجه»[(٢)]. كما يقصد بسياق الكلام: «تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه»[(٣)].

ومما سبق نجد أن استعمال السياق يدور على معاني التتابع و التوالي والاتصال: فسياق الكلام تتابعه وتواليه، وأسلوبه الذي يجري عليه، وسوق الابل والدواب من تتابعها واتصالها بعض، لذلك فإن مهر المرأة كان الأصل فيه أن يكون من الإبل والدواب فتساق إليها، وكذا سياق المريض، فكأن الروح تجمع وتنساق لتخرج من البدن، وفي قولهم: (ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة لم يفصل بينهم بجارية)، معنى الاتصال والتسلسل بلا انقطاع.

ب - تعريف دلالة السياق اصطلاحًا:

يعبر العلماء عن دلالة السياق بمرادفات كثيرة منها: (قرينة السياق) أو (القرينة السياقية) [(٤)]، ويقصدون بها المؤشرات التي يحتف الخطاب بها تسبقه أو تلحقه، إذا كانت من داخل الخطاب، وقد تكون أمورًا خارجية مثل الزمان والمكان وعناصر الواقع المختلفة، ومناسبات أسباب النزول بالنسبة للقرآن المجيد، أو أسباب الورود بالنسبة للسنة النبوية[(٥)]، ومن تعريفاتهم لهذا

(١) المعجم الوسيط: (ص٤٦٤).
(٢) نفسه: (ص٤٦٤).
(٣) نفسه: (ص٤٦٤).
(٤) السياق: المفهوم والمنهج والنظرية، العلواني طه جابر، (ص ١٥).
(٥) نفسه: ص ١٥.

المصطلح[1] قولهم: إن دلالة السياق هي ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه، أو هي ما يؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه[2].

المطلب الثاني: تعريف دلالة السياق القرآني:

اختلف الدارسون في تعريف دلالة السياق القرآني، ونورد في هذا الصدد قولين في تعريفها[3]:

☜ **القول الأول:** يرى أن معنى دلالة السياق القرآني مقصورة على المقال دون الحال، وانطلاقًا من ذلك يعرف صاحب هذا الرأي دلالة السياق القرآني بأنها: (تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال)، أو هي (بيان الكلمة أو الجملة القرآنية منتظمة مع ما قبلها وما بعدها)[4].

☜ **القول الثاني:** يوسع مفهوم السياق القرآني، فيشمل المقال المتمثل بالسباق واللحاق، والحال أو "المقام".

فتكون بذلك دلالة السياق القرآني منقسمة إلى قسمين:

◆ **الأول سياق المقال:** ويتضمن السباق واللحاق.

◆ **والثاني: سياق الحال (المقام):** ويَعنُون به ما يصاحب النص من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه كحال المتكلم والمخاطب، والغرض الذي سيق له.

(١) السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، عبد الرحمن المطيري: (ص ٧١).

(٢) المصدر السابق: ص ٦٤/ ٦٥.

(٣) نفسه: ص ٦٤/ ٦٥.

(٤) نفسه: ص ٦٥.

وفي ضوء ذلك يعرفون السياق القرآني بأنه: "ما يحيط بالنص من عوامل داخليـة أو خارجية لها أثر في فهمه من سـابق أو لاحق به، أو حال المخاطِب، والمخاطَب، والغرض الذي سيق له والجو الذي نزل فيه" [(١)].

كمـا نجد بعـض الباحثين يسـمي دلالة السـياق القرآني بتعبيـر آخر هو (دلالة السـياق في التفسـير) ويعرفها بقوله: "هي بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق إلا بدليل صحيح يجب التسليم به"[(٢)].

وبعد إعمال النظر في التعاريف المختلفة لدلالة السياق القرآني، يمكن أن نخلص إلى أنها مبنية عمومًا على عنصرين أو ركنين هامين

- **الأول:** النظر إلى ما قبل النص المفسـر: سـواء كان أكثر من آية أو أقل من جملة، وهو المسمى(سباق الآية).

- **الثاني:** النظر إلى ما بعد النص المفسـر: سـواء كان أكثر من آية أو أقل من جملة، وهو المسـمى (لحاقها)[(٣)].وبالتأمل في بعض أقوال المفسرين نجد إعمالًا واضحًا لدلالة السـياق القرآني في التفسـير، ونسوق لذلك أمثلة توضح أثر اعتبار ركني السياق المذكورين آنفًا في تفسير الآيات.

◆ **أمثلة في النظر إلى ما قبل الآيات:**

من الأمثلة على النظر إلى سـباق الآية ما أورده الإمام الطبري في تفسـير قوله تعالـى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقـرة: ١٧٧][(٤)]، حيث ذكر في تأويلها قولين:

(١) نفسه: ص ٢٢.
(٢) نفسه: ص ٢٢.
(٣) نفسه: ص ٢٣.
(٤) جامع البيان، الطبري: (١٠/ ٢٩٤).

(الأول: ليس البر الصلاة وحدها، ولكن البر الخصال التي أبينها لكم)؛ فيكون الخطاب هنا للمسلمين. والثاني: (كانت اليهود تصلي قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فنزلت ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ثم قال أبو جعفر مبينًا معنى الآية بما قبلها: (وأولى هذين القولين بتأويل الآية، أن يكون عنى بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، اليهود والنصارى. لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم، والخبر عنهم، وعما أعد لهم من أليم العذاب. وهذا في سياق ما قبلها، إذ كان الأمر كذلك،﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾، -أيها اليهود والنصارى-، أن يولي بعضكم وجهه قبل المشرق وبعضكم قبل المغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية [1].

ومن الأمثلة أيضًا في تفسير الآيات بما قبلها، ما أورده الطبري عن يسيع الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه-، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي: ادنه، ادنه! ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١] يوم القيامة[2].

فبين علي رضي الله عنه أن محلَّ إشكال السائل محدد في الآية باليوم الآخر بدلالة السباق، أي ما ورد قبل الآية المسؤول عنها، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

◆ أمثلة في النظر إلى ما بعد الآيات:

من ذلك ما ورد عن محمد بن أبي معشر، قال: أخبرني أبو معشر، قال: سمعت عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يذاكر محمد بن كعب في قول

(١) نفسه: (٣/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٢) نفسه: (٩/ ٣٢٧).

الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤] فقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: خير صفوف الرجال المقدم، وشر صفوف الرجال المؤخر، وخير صفوف النساء المؤخر، وشر صفوف النساء المقدم. فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ولقد علمنا المستقدمين منكم: الميت والمقتول، والمستأخرين: من يلحق بهم من بعد، وإن ربك هو يحشرهم، إنه حكيم عليم، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيرًا. أم منقولة؟ أم من كلامكم؟

ومن الأمثلة كذلك ما جاء في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، قال الإمام الطبري: (اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾. فقال بعضهم: معنى ذلك: الآن بينت لنا الحق فتبيناه، وعرفنا أية بقرة عنيت... وقال بعضهم: ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوم أنهم نسبوا نبي الله موسى -صلوات الله عليه-، إلى أنه لم يكن يأتيهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك...).

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن لحاق الآية الدال على ذبحهم للبقرة -وهو قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾- موضح أن المراد بالحق: الوضوح والبيان، وليس الحق الذي هو الباطل، فيكون الأمر حينئذ تكذيبًا لموسى. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأولى التأويلين عندنا بقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، هو أن تأويله: الآن بينت لنا الحق في أمر البقر، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها) [1].

(١) نفسه (٢/ ٢١٧).

❁ المبحث الثاني: أنواع دلالة السياق القرآني:

تختلف أنظار الدارسين في بيان أنواع دلالة السياق القرآني، ونجد في هذا الصدد عدة اجتهادات، منها:

تقسيم السياق القرآني إلى نوعين: داخلي وخارجي، يتضمن كل واحد منهما مستويات وأنماط سياقية متنوعة، على نحو ما نفصله[1]:

فالسياق الداخلي: يتضمن أنماطًا كثيرة منها: السياق النحوي (ويعنى بالعلاقات بين الكلمات ووظائفها ومواقعها، والتقديم والتأخير في الآيات)، والسياق الصوتي (ويفهم من خلال التنغيم وهو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام)، والسياق الإيقاعي (وهو مرتبط بالفواصل القرآنية)، والسياق القصصي، والسياق المعجمي.

وأما السياق الخارجي: فنجد ضمنه السياق الاجتماعي، والسياق التاريخي، وسياق الحال أو سياق المقام.

ويمكن القول إجمالًا بأن السياق الداخلي مرتبط بالمرجعية الكاشفة لدلالة النص، والسياق الخارجي مرتبط بالمرجعية المحيطة بالنص، والجامع بينهما أن كلا النوعين له أثر في تحديد المعنى.

- تقسيم السياق القرآني إلى أربعة أقسام هي:

- **سياق الآية:** ويكون في حال الخلاف في معنى الآية، أو وجود لفظ مشترك فيها لا يتضح معناه إلا بمعرفة سياقها. ومثال ذلك لفظ الإحصان الذي يطلق على: الإسلام، والعفاف والحرية، والتزويج، فيتحدد المعنى المراد

(١) مقال "السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني"، خليل خلف بشير العامري (ص ٦ - ٥٤).

بدلالة السياق في الآية. ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، يتبين بدلالة السياق في الآية أن المراد بالإحصان التزويج- وهو قول الجمهور من المفسرين، فمن المتقدمين منهم: الإمام ابن كثير، ومن المتأخرين: الإمام محمد الأمين الشنقيطي[(١)].

- **سياق النص:** يراد به المقطع المتحد في الغرض، ويتضح كثيرًا في سياق القصص القرآني، فيكون ترجيح المعنى بناءً على سياق النص، ومثال ذلك ما فسر به الإمام أبو جعفر النحاس قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في معناه قولان: قال ابن زيد: يبتدئ خلق الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة، وعن ابن عباس: يبدئ العذاب في الدنيا ثم يعيده عليهم في الآخرة. قال أبو جعفر: وهذا أشبه بالمعنى لأن سياق القصة أنهم أحرقوا في الدنيا ولهم عذاب جهنم"[(٢)].

- **سياق السورة:** ويقصد به مناسبة السورة والغرض أو القضية الرئيسية التي تدور عليها، ونضرب لهذا مثالًا بما أورده ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التنبيه على

(١) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ الإسلام، خلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الآية، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، والله أعلم. والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعيَّن أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس وغيره. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، أوجه من التفسير هي أقوال للعلماء، والقرآن يفهم منه ترجيح واحد معين منها). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي: (ص ٢٣٣).

(٢) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس: (ص ١٢١).

مناسبة الأمثال التي وردت في سورة التحريم لسياق السورة، فإن الله أورد فيها شأن امرأة نوح وامرأة لوط، فيبين رَحِمَهُ اللَّهُ مناسبة هذا لسياق ذكر أزواج النبي ﷺ والتحذير من تظاهرهن عليه، فيقول: (في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ﷺ ويردن الدار الآخرة؛ لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما)[1].

- **سياق القرآن:** ويسميه بعض الباحثين بالسياق القرآني، ويقصد به أمرين:

أحدهما: الأغراض والمعاني الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته، والآخر هو الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها، مع اختلاف يسير في طريقة سردها، وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية تتصل بأغراض السورة. ويضرب لذلك مثلًا يقارن فيه بين سياق آيتين إحداهما في سورة (يس)، والأخرى في سورة (القصص)، فيقول: "أما في الآيات فمثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس:٢٠]، فالتركيز فيما يظهر في آية (يس) على الرجل ذاته، أما التركيز في آية القصص فهو على سعي الرجل؛ إذ السياق في الأولى يركز في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ضرورة السعي لإنقاذه، والسياق في الثانية (سورة يس) يركز على الرجل المؤمن لأهمية موقفه من أهل قريته ودعوة الرسل ومآل أمره"[2].

(١) الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية: (ص ٥٧).

(٢) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب رشيد صالح: (ص: ٨٨/ ٨٩).

الفصل الثاني

دراسة دلالة السياق القرآني من خلال تفسير الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

۞ المبحث الأول: التعريف بكتاب التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن:

ويتضمن مطلبين يتناولان اجمالًا: التعريف بكتاب (التفسير البياني للقرآن الكريم)، من حيث منهجه، ومصادره.

المطلب الأول: المكونات المنهجية للكتاب:

ظهرت أولى طبعات كتاب التفسير البياني سنة ١٩٦٢، وقد اعتمدنا في هذا البحث الطبعة السابعة الصادرة عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٩، وتتألف من جزأين، يتضمن الأول: نص مقدمة الطبعة الخامسة للكتاب، وضمنه تتحدث الدكتور عائشة عن جهودها العلمية لدراسة القرآن الكريم في نصه المحكم وبيانه المعجز، سواء على مستوى التأليف والتصنيف، أو المشاركات في المؤتمرات والندوات الدولية[١]، ثم تبين معالم منهجها في التفسير، وهو المنهج الذي تابعت فيها أستاذها وزوجها أمين الخولي في كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب والتفسير)، و من أهم قواعده[٢]:

◈ التناول الموضوعي للقرآن الكريم بجمع ما يراد فهمه من الآيات والسور في الموضوع المدروس.

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن: (ص ٩).

(٢) نفسه: (ص ١٠/ ١١).

◈ ترتيب الآيات على حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، والاستئناس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست النص، مع الأخذ بقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

◈ الانطلاق من أن اللغة العربية هي لغة القرآن، وفي ضوء ذلك ينبغي في فهم دلالات الألفاظ التماس الدلالات اللغوية الأصيلة التي تعطي الحس العربي للمادة في مختلف استعمالاتها المجازية والحسية، مع لمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كله.

◈ الاحتكام إلى سياق النص في القرآن وعرض أقوال المفسرين عليه، فيقبل منها ما يقبله النص، ويعرض عما أقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات[1]، وشوائب الأهواء المذهبية وبدع التأويل.

◈ الاحتكام إلى القرآن العربي في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية، وعرض أقوال البلاغيين و النحويين على القرآن لا العكس.

وفي نهاية عرضها لهذه القواعد التي اعتمدتها عمليًا في كتابها هذا، والتزمتها منهجًا في تناول معاني الآيات والسور تعليلًا وترجيحًا وتوضيحًا، عرَّجت بنت الشاطئ في ختام مقدمتها هذه على مرحلة انتقالها من التدريس بقسم اللغة العربية بمصر إلى التدريس بجامعة القرويين، حيث إن اهتمامها

(١) خلاصة منهج أهل العلم في حكم رواية الاسرائيليات أن (ما جاء موافقا لما في شرعنا صدقناه، وجازت روايته، وما جاء مخالفا لما في شرعنا كذبناه، وحرمت روايته إلا لبيان بطلانه، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه، فلا نحكم عليه بصدق ولا كذب، وتجوز روايته لأنه غالب ما يروى من ذلك راجع الى القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام، وروايته ليست إلا مجرد حكاية له كما في كتبهم أو كما يحدثون بصرف النظر عن كونه حقًّا أو غير حق).
انظر كتاب الإسرائيليات في التفسير والحديث، محمد حسين الذهبي، (ص ١٧٥).

في المرحلة الأولى تركز على توثيق علوم العربية بالبيان القرآني، بينما اتجه في المرحلة الأخرى إلى توثيق علوم الإسلام بالعربية لغة وبيانًا (من حيث لا يصح لدارس فقه الإسلام دون رسوخ في علوم العربية، كما لا يصح له رسوخ في العربية دون دراية بعلوم القرآن والإسلام) [1].

وقد جسدت توجهها الأخير ضمن مجال الدراسات القرآنية في المغرب، من خلال بحوث طلابها في الدراسات العليا بجامعة القرويين، ومنهم:

الأستاذ عبد السلام الكنوني: الأستاذ المحاضر بكلية أصول الدين بتطوان، أنجز رسالته الأولى حول (المدرسة القرآنية بالمغرب من الفتح إلى ابن عطية)، وأطروحته للدكتوراه في موضوع: (مختصر تفسير يحيى بن سلام لأبي عبد الله بن أبي زمنين: دراسة وتحقيق).

الأستاذ محمد الراوندي: الأستاذ المساعد بدار الحديث الحسنية، والذي أنجز رسالته الجليلة حول الصحابة والشعراء، وحرر فيها فهم المؤلفة لقضايا الإسلام والشعر، وصحح أخطاء الدارسين الذين تناولوا هذه القضايا قبل أن يصح علمهم بالجيل الإسلامي من الشعراء والصحابة.

الأستاذ عبد الكبير المدغري: الأستاذ المحاضر بكلية الشريعة بفاس، أنجز أطروحته للدكتوراه حول (الناسخ والمنسوخ للقاضي أبي بكر بن العربي: تحقيق ودراسة).

وفضلًا عن هذه المقدمة، يتضمن الجزء الأول من الكتاب مقدمة الطبعة الأولى كذلك -التي تلي المقدمة السابقة-، وضمنها تعرض المؤلفة لدوافع تأليف الكتاب، المنبثقة من أمرين أساسيين: الأول اقتصار الدراسات العربية

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن (ص ١١).

في الجامعات على اختيار نصوص من شعر العربية ونثرها، واشتغال عموم الدارسين في ميدان الأدب بالمعلقات والمفضليات ومأثور الرسائل والأمالي والمقامات، عن القرآن الكريم (الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكبر ومعجزتها البيانية الخالدة)، فتركوا بذلك (هذا الكنز الغالي) لدرس التفسير، وقلَّ منهم من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسات القرآنية[1].

وأما الدافع الثاني فكون الدرس التفسيري تقليديًا أثريًا، لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم. تقول الدكتورة عائشة موضحة هذا السبب: (كان المنهج المتبع في درس التفسير -إلى نحو ربع قرن من الزمان- تقليديًا أثريًا، لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم. حتى جاء شيخنا الإمام «الأستاذ أمين الخولي» فخرج به عن ذلك النمط التقليدي، وتناوله نصًّا لغويًا بيانيًا على منهج أصله، وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم)[2].

وإضافة لذلك تقدم بنت الشاطئ لمحة عن جهود المكتبة القرآنية وأنواعها ومجالاتها، كما تبسط بعض ملامح وأسس منهجها في تناول النص القرآني الذي استفادته -كما قدمنا- من أستاذها الخولي، وتلخص محاولتها في هذا الكتاب قائلة: (وما أعرضه هنا، ليس إلا محاولة في هذا التفسير البياني للمعجزة الخالدة، حرصت فيها -ما استطعت- على أن أخلص لفهم النص القرآني فهمًا مستشفًا روح العربية ومزاجها، مستأنسة في كل لفظ، بل في كل حركة ونبرة، بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتد

(١) المرجع السابق (ص ١٣).
(٢) نفسه: (ص ١٤).

الخلاف، على هدى التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه، والتدبر الواعي لدلالة سياقه، والإصغاء المتأمل، إلى إيحاء التعبير في البيان المعجز)[1].

وأما بخصوص منهجها في تناول السور القرآنية فقد تناولت في الجزء الأول سبع سور هي: الضحى والشرح والزلزلة والعاديات والنازعات والبلد والتكاثر. وأما الجزء الثاني فأفردته لتفسير سور: العلق والقلم والعصر والليل والفجر والهمزة و الماعون.

واعتمدت في تناولها ضوابط التزمتها في بداية كل سورة، حيث تبين طبيعتها: أمكية؟ أم مدنية؟ وترتيب نزولها، وسببه، مع إيراد الروايات والأقوال المختلفة فيه. و تعلل اختيارها لهذه السور القصار بكونها ملحوظ فيها وحدة الموضوع، وأكثرها من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية[2].

المطلب الثاني: المصادر المعتمدة في الكتاب مصنفة وفق مجالاتها:

❑ **كتب غريب القرآن:**

- معاني القرآن للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ. المفردات للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.

❑ **كتب التفسير:**

- جامع البيان لابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الطبرسي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.
- الكشاف للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

(١) نفسه: (ص ١٤).

(٢) نفسه: (ص ١٨).

- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ.
- التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١ هـ.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري المتوفى سنة ٨٥٠ هـ.
- تفسير الجلالين لجلال الدين محمد بن أحمد المحلى (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ.
- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ.

❑ **كتب علوم القرآن:**

- التيسير لأبي عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.

❑ **كتب السنة والحديث:**

- صحيح مسلم المتوفى سنة ١٩٧هـ
- صحيح البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ.
- سنن ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥هـ.
- موطأ الإمام مالك المتوفى سنة ٢٩٧ هـ.

❑ **كتب السيرة النبوية:**

- السيرة النبوية لابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ.
- سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ.
- عيون الأثر لابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ.

❑ معاجم اللغة والنحو:

- الصحاح للجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ.
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري المتوفى نحو ٣٩٥هـ.
- أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ.
- لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ.
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المتوفى سنة ٧٦١هـ.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ.

۞ المبحث الثاني: أنواع السياق القرآني وأدواره في تفسير الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

المطلب الأول: أنواع السياق القرآني في تفسير بنت الشاطئ:

لا تخرج أنواع السياق القرآني في تفسير بنت الشاطئ عن نمطين أساسيين، هما:

سياق عام: وهو سياق استعمال اللفظ القرآني في المصحف. (وهو المسمى أيضا سياق القرآن).

وسياق خاص: ويتضمن مستويين هما سياق السورة، وسياق الآية.

وإلى هذين النوعين تشير المؤلفة في معرض حديثها عن منهجها في التفسير: (والمنهج المتبع هنا، هو الذي خضعت له فيما قدمت من قبل بضوابطه الصارمة، التي تأخذنا باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالته، وعرض الظاهرة الأسلوبية على نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، ثم سياقها العام في المصحف كله التماسًا لسرها البياني) [1].

(١) نفسه: ٢/ ٧.

➢ سياق القرآن، أو السياق العام في المصحف:

وفيه تتناول المؤلفة استعمال القرآن للفظ المراد تفسير معناه، من خلال استقراء الآيات التي ورد فيها، ونضرب لذلك مثالًا بكلامها عن كلمة (ويل) في مطلع سورة الهمزة، و هو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، حيث تقول[١]: (ويل: كلمة عذاب وسخط. ويكثر استعمالها مع هاء الندبة في التفجع عند الكوارث. وتأولها بعض المفسرين في آية الهمزة، بأنها «واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار وقيحهم»[٢]، ونستقرئ مواضع الاستعمال في القرآن الكريم للكلمة، فنجدها في أربعين موضعًا. منها ثلاث عشرة مرة، معرفة بالإضافة، في موقف التحسر والتفجع والندبة، بآيات: (القلم٣١، هود٧٢، الفرقان٢٨، الكهف٤٩، الأحقاف١٨، طه٦١، القصص٨٠، الأنبياء١٤، ٤٦، ٩٧، يس٥٢، الصافات٢٠، المائدة٣١). وباقي الآيات الأربعين، في سياق النذير من الله سبحانه. وباستثناء آية الأنبياء: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] معرفة بأل، جاءت «ويل» نكرة، بمثل الأسلوب في آية الهمزة. والنذير في كل آياتها من الله سبحانه، بويل، للكافرين، والمشركين، والمكذبين، والظالمين، والمطففين، والمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، والقاسية قلوبهم، وكل أفاك أثيم، وكل همزة لمزة. والوعيد فيها بويل: من مشهد يوم عظيم، ومن النار، وعذاب أليم، ومن يوم الدين، ويومهم الذي يوعدون، والنبذ في الحطمة. وفي هذا الاستقراء ما يكفي إدراكًا لما للفظ ويلٍ من رهبة، وما يثير من خوف ورعب، دون أن نحتاج فيه إلى تأويل بوادٍ في جهنم يسيل قيحًا، أحسبه من الإسرائيليات التي أدخل فيها اليهود عناصر من وصفهم لجهنم).

(١) نفسه: ٢/ ١٦٧.

(٢) نفسه: ٢/ ١٦٨.

■ **سياق السورة:** ويتضمن ما تعلق بسبب نزولها وزمانه ومكانه، وترتيبها في النزول، ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها. ونجد لهذا النوع حضورًا دائمًا في مستهل كل سورة، إذ تبين المؤلفة ما تعلق بسبب نزولها، وترتيبه، ومكانه، وزمانه، كما تعرج على مناسبتها للسورة قبلها. وسنعرض لنموذج لهذا النوع من خلال سورة القلم في شأنها: (والمشهور أنها نزلت بعد العلق، فتكون ثانية السور في ترتيب النزول بعد «اقرأ». وهو الذي ذهب إليه أكثر الأئمة، و مهما يكن الخلاف في ترتيب نزول القلم، فهي من أوائل السور المكية المبكرة التي تهدينا إلى الجو العام في منزل الوحي، أول المبعث، وذكر بعضهم في أسباب نزولها أنها -أو معظمها- «في الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي جهل بن هشام المخزومي، ومناسبتها لما قبلها أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع وأنه تعالى لو شاء لخسف بهم الأرض أو لأرسل عليهم حاصبًا. وكان ما أخبر تعالى به هو ما يلقنه رسول الله ﷺ بالوحي، وكان الكفار ينسبونه مرة إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرة إلى الجنون، فبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون، وتعظيم أجره على صبره على أذاهم، والثناء على خلقه العظيم) [1].

■ **سياق الآية:** وتعبر عنه المؤلفة أحيانا بسياق الموقف أو المقام، ويراد به السياق أو المقام الذي وردت فيه الآية، و تكشف عنه المؤلفة من خلال دراسة المقام الذي وردت فيه الآية وربطها بما قبلها من الآيات (السباق) وما بعدها (اللحاق)، ثم محاولة ترجيح المعنى المتسق مع طرفي هذا السياق الخاص للآية ونسوق لهذا مثالين بارزين:

(١) نفسه: ٢/ ٣٩.

❖ **مقام الإنذار في سورة العاديات:** فبناء عليه فسرت المؤلفة معنى التحصيل بالإنذار لا بجمع الصحف كما رآه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (معنى حُصِّلَ جمع في صحف، أي: أظهر محصلًا مجموعًا).

وقد ردت المؤلفة هذا المعنى لكونه لا يتسق مع مقام الإنذار في الآية بقولها: أن في تأويل (حصل) في آية العاديات بمعنى جمع في الصحف، وأظهر محصلًا مجموعًا (جَور على المعنى القوي المثير لقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، فليس المقام هنا للجمع في الصحف[١]، وإنما المقام للإنذار بيوم ينكشف فيه ما طوى في الصدور، ويظهر ما تخفي الضمائر، وقد كان الظن الكاذب به أن يظل خفيًا مستورًا.

❖ **موقف الدهشة والاستغراب والخوف يوم القيامة في سورة النازعات،** عند قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠، ١١].

اختلف المفسرون على أي وجه يحمل الاستفهام في الآية، فقال الزمخشري بحمله على الاستبعاد والاستهزاء، وقال بعضهم بحمله على وجه التمني، أو الإنكار، لكن الذي ارتأته المؤلفة[٢] بناءً على سياق الموقف أن (لا يحمل على وجه التمني الذي تصرف عنه الآية التالية، ولا وجه الاستهزاء الذي لا يمكن تصوره في مثل ذلك الموقف، ولا على وجه الإنكار الذي لا محل له مع الإحضار وتحقق البعث)[٣] وإنما الصواب أن يحمل على (وجه

(١) نفسه: ١/ ١١٧.
(٢) نفسه: ١/ ١٣٧.
(٣) نفسه: (١/ ١٣٧).

الدهشة والاستغراب والخوف، وحيرة المأخوذ برجفة القيامة بغتة!)[1]، وهي إشارة لسِباق الآيات قبلُ، الواردة في هول يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ٦ - ١١]، وتماشيًا مع السياق المقامي للآية؛ تحرص المؤلفة على ربطها بلِحاقها، لتستدل على اتساق معنى الاستغراب والخوف الذي رجحته مع المعاني اللاحقة، فتقول: (وقد مضى القول في استبعاد الاستهزاء في موقف القيامة ورجفة البعث. ويمنعه أيضًا أن الاستفهام في الآيتين السابقتين جاء مع فعل المضارعة ﴿يَقُولُونَ﴾ الذي يعني الإحضار، أما الكرة الخاسرة فجاءت مع الفعل ماضيًا ﴿قَالُوٓا۟﴾، وأتدبر هذا الانتقال من المضارعة إلى المضي، فأراه يهدي إلى بيان وجه المقول وتحديد الجو الذي قيلت فيه كل منهما، والدلالة على الحالة النفسية للقائلين في كل من الموقفين: بغتتهم رجفة القيامة، بما تبعها من هزة ووجيف وخشوع، فهم يقولون في دهشة المأخوذ ومن فوجئ بما لم يكن في حسابه قط: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾. ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى إجابتهم عما سألوا عنه، وقد قضي الأمر وصار كل هذا الذي كذبوا به واستبعدوه واقعًا مشهوداً. فلما عاينوا اليقين ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ في حسرة وندم ويأس)[2].

المطلب الثاني: أدوار السياق القرآني في التفسير البياني لبنت الشاطئ:

◆ **الدور الترجيحي:** ونقصد به ترجيح المؤلفة لمعنى أو وجه بياني محتمل، بناء على دلالة السياق عليه، ونمثل لهذا بترجيحها لمعنى الخبرية

(١) نفسه: (١/ ١٣٧).

(٢) نفسه: (١/ ١٣٧).

في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، باعتبار السياق المقامي دالًّا عليه، ففي مستهل تناولها لسورة التكاثر تورد المؤلفة قولًا للإمام الرازي في المراد من قوله سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ (فيحتمل أن يكون إخبارًا عنهم، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى التوبيخ والتقريع أي: أألهاكم، كما قرئ "أنذرتهم" "أأنذرتهم"، و﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [(١)].

وترجح انطلاقًا من سياق السورة المقامي أن الخبرية فيها (أوقع في الزجر وأبلغ في الوعيد، بما تشهد به على أن إلهاء التكاثر إياهم واقع قد كان فعلًا، وليس المقام مقام استفهام، وإنما هو مقام بيان لما وراء هذا التكاثر العقيم الخاسر الذي ألهاهم وشغلهم عن التفكير في المصير) [(٢)].

◆ **الدور الحجاجي:** والمراد به اعتماد المؤلفة على دلالة السياق في مناقشة أقوال المفسرين ونقدها، بناء على حجة سياق الآية، ونمثل لهذا بتناولها لقوله تعالى في سورة الزلزلة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، فقد قال بعض المفسرين بأن الموحى إليه محذوف ومعناه: (أوحى إلى ملائكته)، أي أن الموقف يحتاج إلى وساطة لإيصال الإيحاء إلى الأرض، (وهو ما يأباه السياق الذي يقتضي عكس ذلك) [(٣)]، كما فسرته وبينته بقولها: (فمع بناء «زلزلت الأرض» للمجهول، ومع قوة الفاعلية المستفادة صراحة من إسناد الإخراج والتحدث والزلزلة إلى الأرض، لا وجه لتقدير وساطة الملائكة، لإيصال الإيحاء إلى الأرض التي زلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وتحدث أخبارها. فالبيان يقوم على قوة هذه الفاعلية في تصوير هول الموقف الذي يدهش له الإنسان فيقول في عجب وقلق: مالها؟

(١) نفسه: (١/ ١٩٥).
(٢) نفسه: (١/ ١٩٥).
(٣) نفسه: (١/ ١٩٥).

فاقتضى أن يأتيه الجواب: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، تحدث به الأرض نفسها تلقائيًا، فالإيحاء هنا للأرض مباشرة ليلائم إسناد التحدث إلى الأرض، وسر قوته في هذه التلقائية المباشرة على وجه التسخير[١].

◆ **الدور التعليلي**: ويقصد به تعليل المؤلفة لمعنى في الآية أو وجه قرائي للفظ قرآني تضمنته، وذلك اعتمادًا على مراعاة سياق ورودها. وسنمثل للأمرين ههنا بتفصيل:

فأما تعليل اختيارها لمعنى معين للآية استنادًا إلى دلالة السياق عليه، فمثاله في سورة التكاثر: عند تناول معنى ودلالة التكرير بـ(ثم) في الآيتين، عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٢ - ٤]، فالمؤلفة بداية تبين أن مما لا يخفى أن (الخطاب لمن ألهاهم التكاثر، وأن التكرار مبالغة في الزجر، وتأكيد للوعيد والنذير)، كما فسره الطبري والزمخشري وغيرهما من أئمة التفسير، لكنهم اتجهوا إلى عدة تأويلات أخرى، وإضافات نذكر منها ما ساقته من أقوال، منها: ما نقله الطبري عن الضحاك أن الأولى للمؤمنين، فهي وعد، والثانية للكفار، فهي وعيد[٢]، وما أورده أبو حيان، عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-، أن الأولى في القبور، والثانية في البعث[٣]، ويضيف الرازي عدة وجوه أخرى للتكرير في الآية (أحدها: أنه للتأكيد، وأنه وعيد بعد وعيد، كما تقول: للمنصوح أقول لك، ثم أقول لك لا تفعل، وثانيها: أن الأول عند الموت، والثاني في سؤال القبر، والثالث: أن إحدى الحالتين عذاب القبر، والأخرى عذاب القيامة، كما روي عن أبي ذر

(١) نفسه: (١/ ٩٢).
(٢) جامع البيان، الطبري (٢٤/ ٥٨٠).
(٣) البحر المحيط، أبو حيان (١٠/ ٥٣٦).

أنه قال: كنت أشك في عذاب القبر، حتى سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إن هذه الآية تدل على عذاب القبر وإنما قال: ثُم لأن بين العالَمين والحياتين موتًا..) [1].

والذي تراه بنت الشاطئ: أن (النص القرآني في وضوح بيانه ليس بمسئول عن هذا الخلاف، ولا هو بحيث يوجه إلى تفسير الآية الواحدة بالنقيضين، فيستوى خطاب الكفار والمؤمنين، وأسلوب الوعد والوعيد في البيان المعجز!) [2].

ثم توضح تعليلها لدلالة التكرير بـ(ثم) في الآية على أنه يفيد المبالغة والإنذار، وهو ما يتسق وجو الوعيد المسيطر على السورة كلها -كما ذهب إليه الزمخشري-، وتنقض بهذا التعليل -المبني على دلالة سياق الآية- علة النحويين في إفادة حرف «ثم» للتراخي، ليقال (إن الآية الأولى عند الموت، والثانية في سؤال القبر. أو إن الأولى لعذاب القبر، والأخرى لعذاب القيامة..)، والحال أن دلالة السياق في الآيتين كلتيهما دالة على أن علة التكرير في الآيتين كلتيهما إنما هي المبالغة في ردع الذين ألهاهم التكاثر، وزجرهم وإنذارهم [3].

وأما تعليل اختيار أو ترجيح وجه قرائي: فنمثل له بتعليلها اختيار قراءة جمهور القراء ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] بكسر الزاي في (زلزلها)، وهي قراءة الأئمة السبعة [4]، والفرق بين قراءتها بالفتح والكسر، أن المكسور مصدر، والمفتوح اسم، وليس في الأبنية - كما قالوا - فَعلال بالفتح إلا في

(١) الرازي: مفاتيح الغيب (٣٢ / ٢٧٢).
(٢) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ٢٠٢).
(٣) المرجع السابق: (١/ ٢٠٢).
(٤) نفسه: (١/ ٨٣).

المضاعف. ومحل استدلالها بدلالة السياق قولها أن[1] (المصدرية أولى بالمقام، لما فيها من تأكيد يلائم السياق. ويؤيده تعين المصدرية في الآية الأخرى التي استعمل فيها القرآن هذه الصيغة، وهي آية: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

❁ المبحث الثالث: أثر السياق القرآني في توجيه معاني الآيات ضمن سورتي الضحى، والشرح:

المطلب الأول: سورة الضحى:

سنحاول ضمن هذا المطلب استقراء بعض المعاني التي اعتمدت بنت الشاطئ دلالة السياق القرآني في ترجيحها، من خلال سورة الضحى، وسنتوقف عند مسألتين اثنتين أولاهما: (حذف كاف الخطاب من (قلى) عند قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣]، والثانية معنى (التحدث بالنعمة) في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

○ حذف كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣].

تشير المؤلفة إلى وقوف المفسرين عند حذف كاف الخطاب في قوله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: (وما قلى)، ثم تبين أقوالهم في تعليل هذا الحذف، وتورد بعد ذلك تعليلها الخاص استنادًا الى دلالة السياق في الآيات. وسنعرض أولًا أقوال المفسرين كما أوردتها وعقبت عليها، ثم نذكر ما ترجح عندها في تعليل هذا الحذف.

☜ أولًا: أقوال أئمة التفسير في حذف كاف لخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾:

جاء المفسرون بعدة تأويلات لحذف الضمير في (قلى)، منها:

- قول الزمخشري أن الحذف من قَلى هو اختصار لفظي لظهور

(١) نفسه: (١/ ٨٣).

المحذوف، وهو (كحذفه من الذَّاكِراتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، يريد: والذاكراته ونحوه: ﴿فَغَاوَىٰ﴾.. ﴿فَهَدَىٰ﴾)[1].

- قول الإمام الطبري: وهو -كما ذكرت بنت الشاطئ- غير بعيد عن قول الامام الزمخشري، أن الحذف هنا جاء اكتفاءً بفهم السامع لمعناه، إذ كان قد تقدّم ذلك قوله: ﴿مَاوَدَّعَكَ﴾ فعرف بذلك أن المخاطب به نبيّ الله ﷺ[2].

- قول النيسابوري أن حذف المفعول من «قلاك» و«آواك» و«هداك» و«أغناك» للفاصلة مع دلالة قرينة الحال أو المقال[3]. وقد عدَّ الرازي أيضًا هذا السبب ضمن وجوه ساقها في المسألة[4]، أحدها: الإطلاق أي (أنه ما قلاك ولا [قلى] أحدًا من أصحابك ولا أحدًا ممن أحبك إلى قيام القيامة)، وهذا توسع لا يعطيه صريح السياق خطابًا للمصطفى ﷺ بعد فتور الوحي- كما تقول الدكتورة عائشة[5].

كما ردت تعليل الحذف برعاية الفواصل، لكونه اعتبارًا لفظيًا محضًا يبعد أن يكون مقصودًا وحده في البيان القرآني، ولو كان كذلك لسارت على نسقه جميع فواصل الآيات حتى نهاية السورة، والحال أن (الحذف إنما هو لمقتضى معنوي بلاغي، يقويه الأداء اللفظي، دون أن يكون الملحظ الشكلي هو الأصل. ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا، لما عدل عن رعاية

(١) الكشاف، الزمخشري: (٤/ ٧٦٦).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: (٢٤/ ٤٨٥).

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري: (٦/ ٥١٦).

(٤) يقول رحمه الله: (وفي حذف الكاف وجوه أحدها: حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى في ودعك، ولأن رؤوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف، وثانيها: فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا [قلا] أحدًا من أصحابك ولا أحدًا ممن أحبك إلى قيام القيامة، تقريرا لقوله: «**المرء مع من أحب**». مفاتيح الغيب، الرازي (٣١/ ١٩٢).

(٥) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ٣٤).

الفاصلة في آخر سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ - ١١]. وليس في السورة كلها ثاء فاصلة، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق، ولم يقل تعالى: فخبِّرْ، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به) [(١)].

☜ **ثانيًا:** تعليل الدكتورة عائشة لحذف كاف الخطاب في (قلى) بمقتضى السياق القرآني للآية والذي ذهبت إليه المؤلفة، أن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف، وهو ترجيح بأحد أنواع السياق المعروفة، وهو (السباق)، أي: دلالة الكلام على ما بعده. فخطاب الله تعالى لنبيه ﷺ في الآية السابقة بكاف الخطاب (ما ودعك)، دال على اتصال المعنى في ما بعدها. ولهذه الدلالة السياقية علاقة بمقام الخطاب الرباني لنبيه ﷺ، هو مقام إيناس، لأن المفسرين مجمعون على أن سبب النزول، هو إبطاء الوحي في أوائله على الرسول ﷺ حتى شق ذلك عليه، وقيل فيما قيل: ودع محمدًا ربه وقلاه[(٢)]، فاقتضى ذلك تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في هذا السياق بعبارة: (ما قلاك)، لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة واللقاء) [(٣)].

○ **معنى (التحدث بالنعمة) في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾** [الضحى: ١١]. تبعًا لمنهج البحث، نستعرض أولًا أقوال المفسرين التي وقفت عندها بنت الشاطئ، ثم نتبع ذلك رأيها في معنى الآية مع إيضاح وجه مراعاتها لدلالة السياق:

(١) المرجع السابق: (١/ ٣٥).
(٢) نفسه: (١/ ٢٣).
(٣) نفسه: (١/ ٣٥).

اختلاف المفسرين في المراد من الآية:

تنقل لنا بنت الشاطئ اختلاف المفسرين في معنى النعمة، فمن قائل إنها النبوة، أو هي القرآن، فيما اتجه بعضهم إلى تفسيرها بالغنى. وقد أورد الامام الرازي القولين الأولين في أثناء تفسيره للآية. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وفيه وجوه أحدها: قال مجاهد: تلك النعمة هي القرآن، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتحديث به أن يقرأه، ويقرئ غيره، ويبين حقائقه لهم، وثانيها: روي أيضًا عن مجاهد: أن تلك النعمة هي النبوة، أي بلغ ما أنزل إليك من ربك" [1]. وأما القول الثالث، فرجحه الإمام محمد عبده في تفسيره، واستعان فيه بسياق الآيات، منبهًا إلى أنه لا يلائم تفسير النعمة بالنبوة، وإنما يفيد تأويلها بالغنى. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد يقال أن المراد من النعمة النبوة، ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ فتكون النعمة بمعنى الغنى، ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾) [2].

كما اختلفوا كذلك في المقصود بالتحدث بها، فتأولوه بشكرها وإشاعتها [3]، لكن ما استشكلته بنت الشاطئ هو ذكرهم في التحدث بنعمة الله أنه إنما يحسن حين لا يكون ذلك عن رياء، أو تشبه بأهل السمعة. وهذا رأي صريح للإمام الرازي في تفسير الآية، وإليه يشير رَحِمَهُ اللَّهُ، بقوله: (وثالثها: إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدي بك غيرك، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣١/ ٢٠١).

(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد عبده: (ص ١١٣).

(٣) منهم الزمخشري والفخر الرازي، التفسير البيان، عائشة عبد الرحمن:(١/ ٥٣-٥٤).

رياء) [1]. وهذا -في نظرها- (احتياط في غير موضعه، فما كان يظن به ﷺ أن يقول في التحدث بنعمة الله مما يشتبه بالرياء والسمعة؟ ومن أي السبل يمكن أن نتصور احتمال الرياء والتشبه بأهل السمعة، ممن اصطفاه الله تعالى. خاتماً للنبين، وقال فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]؟) [2].

رأي بنت الشاطئ في المراد بالنعمة والتحدث بها:

ترجحُ المؤلفة أن المراد بالنعمة في الآية، هو الرسالة. ولذلك فإن السياق يقتضي أن الأمر بالتحدث بها: هو أن يبلغها، ويؤدي كل ما اتصل بها، لكونها المهمة التي اصطُفي لها، ولأنها كذلك أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل [3]. وتأكيدًا وتأييدا لهذا المعنى، تستدعي بنت الشاطئ سياق الآية وتصِلها بالآيات الواردة قبلها، منبهة إلى أن ترتيبها دال على مهمة الرسالة ومراتبها. وبيان ذلك قولها: (فإن الله تعالى نبَّه رسوله الكريم إلى أن إصلاح الجماعة، يأتي في المنزلة الأولى من الاعتبار والتقدير، حين أجمل له في هذه الآيات الكريمة من مهمة رسالته: أن تدفع ذل الفاقدين، وقهر اليتامى، وحيرة السائلين، فهي رسالة إصلاح وهداية أُمر النبي ﷺ بالتحدث بها وتبليغها فهل ﴿ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾؟) [4].

المطلب الثاني: سورة الشرح:

- معنى (الشرح) في الآية: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

تنقل المؤلفة اختلاف المفسرين في المراد بشرح الصدر في الآية، على قولين:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣١/ ٢٠١).
(٢) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ٥٤).
(٣) المرجع السابق: (١/ ٥٤).
(٤) نفسه: (١/ ٥٤).

الأول: أنه الشرح المعنوي للإيمان والهدى.

والثاني: أنه معنى مادي هو شق الصدر.

و قد أورد هذين القولين الامام الرازي في تفسيره للآية، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي شرح الصدر قولان: **الأول:** ما روي أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاه، وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله، وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علمًا وإيمانًا، ووضعه في صدره.

والثاني: أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة، ثم ذكروا فيه وجوهًا أحدها: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغر عنده كل شيء احتمله من المشاق) [1].

وسنقف مع القولين بتفصيل، ونورد ما جاءت به بنت الشاطئ في شأنهما، ثم نعرج على رأيها وترجيحها المعتمِد على دلالة السياق القرآني في الآية.

- أقوال المفسرين:

◈ القول الأول: «الشرح» بمفهومه المعنوي:

يرى أصحاب هذا القول أن الشرح المراد في الآية هو بمعناه المجازي لا الحقيقي، إذ يتضمن دلالات الفسحة و البسط والتوسعة: فالطبري يذهب إلى تفسيره بالهدى والإيمان بالله ومعرفة الحقّ، ولين القلب ليكون وعاء للحكمة[2]. ويرى فيه الزمخشري دلالة على معنى الفسحة والسعة وجعل الصدر وعاء للعلم والحكمة. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فسحناه حتى وسع عموم النبوّة ودعوة الثقلين جميعًا، أو: حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار

(١) مفاتيح الغيب: (٣٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: (٢٤/ ٤٩٣).

قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل) [١]، وفسره الإمام محمد عبده أيضًا بقوله: «وقد شرح الله صدر نبيه بإخراجه من تلك الحيرة التي كان يضيق لها صدره، بما كان يلاقيه في سبيله من جمود قومه وعنادهم» [٢].

◈ القول الثاني: الشرح بمفهومه المادي:

القول بشرح الصدر بمعناه المادي أورده أبو حيان في تفسير الآية عن ابن عباس وجماعة، أنها (إشارة إلى شق جبريل عليه السلام صدره في وقت صغره) [٣]، كما نبه إليه الإمام النيسابوري مستدلًا (بما روي أن جبرائيل أتاه وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله، وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علمًا وإيمانًا، ووضعه في صدره) [٤]، لكنه بين الاعتراض الوارد على ذلك (من جهة أن هذه الواقعة من قبيل الإعجاز فكيف يمكن تصديقها قبل النبوة؟ ومن جهة أن الأمور المحسوسة لا يقاس بها الأمور المعنوية). ورد عليه قائلًا: (وأجيب عن الأول بأن الإرهاص جائز عندنا، وعن الثاني بأنه يفعل ما يشاء، ولا يبعد أنه تعالى جعل ذلك الغسل والتنقية علامة تعرف الملائكة بها عصمته عن الخطايا) [٥].

- قول الجمهور:

الذي ذهب اليه الجمهور أن المراد بشرح الصدر في الآية أمر معنوي، وقد اختلفوا في حقيقته، فقال بعضهم هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما

(١) الكشاف، الزمخشري (٤/ ٧٧٠).
(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد عبده: (ص ١١٤).
(٣) البحر المحيط، أبو حيان: (١٠/ ٤٩٩).
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري: (٦/ ٥٢١).
(٥) نفسه: ٦/ ٥٢٢.

يوحى إليه[1]. وقال آخرون أنه (أمر معنوي؛ وهو إما نقيض ضيق العطن بحيث لا يتأذى من كل مكروه وإيحاش يلحقه من كفار قومه، فيتسع لأعباء الرسالة كلها، ولا يتضجر من علائق الدنيا بأسرها، وإما خلاف الضلال والعمه حتى لا يرى إلا الحق، ولا ينطق إلا بالحق، ولا يفعل إلا للحق)[2].

- رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

ترى المؤلفة أن أول ما ينبغي؛ أن ينظر آيات شرح الصدر في القرآن، لنرى هل هي خاصة بنبينا -**عليه الصلاة والسلام**-، فتتعلق بالمروي في السيرة عن شق الملائكة صدره، أيام كان طفلًا ببادية بني سعد؟ أو أنها أقرب إلى الشرح المعنوي للإيمان والهدى؟

ونراها تتأسى في التماس معنى شرح الصدر بما فعله الراغب في المفردات، حين جمع بعض آيات شرح الصدر في القرآن، وفسره بأنه (بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه)[3].

ثم تتتبع معاني شرح الصدر في سياق آيات كثيرة، يترجح فيها أنه هدى الإيمان ونور الحق وراحة اليقين والسلام النفسي، ويبعد المعنى المادي لشرح الصدر. منها آيتا النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧] وآية الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ

(١) البحر المحيط، أبو حيان: (١٠/ ٤٩٩).
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري: (٦/ ٥٢٢).
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني: (ص ٤٤٩).

أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والآيات المذكورة جميعها فيها أن الشرح للصدر، فقوبلت في «آية النحل» بغفلة الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وفي «الأنعام» بضيق الصدر وحرجه ورجس الكفر، وهذا ما يترجح معه القول بأن شرح الصدر طمأنينة نفس، وهدى إيمان، وارتياح إلى اليقين، كما و(يجعلنا نتردد في تفسير الصدر هنا بالجارحة كما ذهب النيسابوري) [(١)].

وبالاحتكام إلى السياق القرآني أيضًا نجد لفظ (صدر) بصيغة المفرد، عشر مرات، كلها بلا استثناء، إما مع الشرح، وإما مع الضيق والحرج في آيات، يكون الخطاب فيها للرسول ﷺ، كقوله ﷻ ﴿ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ [هود: ١٢]، ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢] ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧] وكذلك آية الشعراء، حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣] كما ورد اللفظ بصيغة الجمع (صدور) في آيات كثيرة، منها ما اقترن بالشفاء ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]، ﴿ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ووسوسة الشيطان في آية الناس: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤، ٥].

والذي تخلص إليه المؤلفة بعد هذا كله: أن جميع آيات القرآن لم يرد فيها معنى مادي لشق الصدر، بل كلها واردة في معنى الهدى والنور والشفاء، أو الضيق والحرج والضلال، تقول مبينة هذه الخلاصة: (وليس شيء من هذا

(١) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ٦٠).

كلـه بالذي يجنح إلى معنى مادي كشـق الصدر الذي هـو جارحة. ولا مجال معه لتزيد لا يحتمله صريح السـياق، مما أفاض المفسـرون في ذكره من علوم وحكمـة، وهذه آيات القرآن جميعًا في الصدور، لا تأذن لنا في مثل هذا التزيد، وهي في سـياق الإيمان والهدى ونور الله والشـفاء، أو الضيق والحرج والعسر والطمس والضلال والغل) [1].

معنى الفراغ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]:

تتنـاول المؤلفة في الآية الأولى تحديد المحـذوف في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾، لأن الآيـة (لـم تحدد مِـمَّ يكون هذا الفـراغ؟ وفيمَ يكـون النَصَب؟)، وتسرد أقوال المفسرين في تقديره، ثم تصرح أن العلة في ذلك (الاكتفاء بدلالة السـياق، وجريًا على مألوف البيان القرآني في السـكوت عـن التحديد في مقام الإطلاق). لكن المفسـرين تناولوا تقدير متعلق الفـراغ والنصب، وقد جاءوا بأقوال ساقتها المؤلفة في أثناء تناولها للآية، وسنوردها تباعًا، ثم نأتي إلى رأيها وترجيحها المبني على دلالة السياق في الآية.

- أقوال المفسرين:

أورد الإمـام الطـبري اختـلاف أهل التأويـل في متعلق الفـراغ المراد في الآيـة، على ثلاثة أقـوال: (اختلف أهل التأويل في تأويـل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا فَرغت من صلاتك، فانصب إلى ربك في الدعاء، وسـله حاجاتك، وقـال آخرون: بل معنـى ذلك: (فإذا فرغـت) من جهاد عـدوك (فانصب) في عبـادة ربك، وقال آخرون: بل معنى ذلـك: فإذا فرغت من أمر دنياك، فانصب في عبادة ربك. وقد عقب عليها بقوله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول

(١) المرجع السابق: (١/ ٦١).

من قال: إن الله -تعالى ذكره- أمر نبيه أن يجعل فراغه من كل ما كان به مشتغلًا من أمر دنياه وآخرته، مما أدى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قربه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالًا من أحوال فراغه دون حال، فسواءٌ كلُّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلًا لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ، دون حال أخرى) [(١)].

وأما الزمخشري فقد ربط الآية بما قبلها، فقال: (لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة، بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض، ويتابع ويحرص على أن لا يخلي وقتًا من أوقاته منها؛ فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى)[(٢)]. ورأى الشيخ محمد عبده في تقدير متعلق الفراغ بالأعمال النافعة له ﷺ ولأمته[(٣)].

- رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

تصرح بنت الشاطئ بأن الآية لم تحدد مِمَّ يكون هذا الفراغ؟ وفيمَ يكون النصب؟ اكتفاءً بدلالة السياق، ولذلك (يتعين أن نصل الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ بسياق الآيات قبلها، بحكم وجود «الفاء» الرابطة للآية بما قبلها. (فالآية مسبوقة بتأكيد اليقين بأن هذا العسر يصحبه يسر لا محالة)، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، (والله منجز وعده لا ريب، وسيعقب هذا ما يعقبه من فراغ البال من الحيرة والضيق والكرب والضنك، بعد إذن من الله على عبده بأن شرح له صدره ووضع عنه وزره الذي أنقض

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: (٢٤/ ٥٦٧).
(٢) الكشاف، الزمخشري: (٤/ ٧٧٢).
(٣) تفسير جزء عم، محمد عبده: (ص ١١٧).

ظهره، ورفع له ذكره)، وبناء على سياق الآيات هذا، تؤكد أنه (إذا لم يكن بُدٌ من تحديد متعلق الفراغ، فلسنا بحيث نطمئن إلى شيء فيه، غير ما سبقت به الآيات المحكمات: وهو أنه سبحانه قد أفرغ بال رسوله مما كان يجهده من حيرة، ويثقله من وزر ينقض الظهر، و تفسر معاني هذا الإفراغ بأمور منها: (اليسر بعد العسر، والراحة النفسية بعد الشدة والكرب)، ثم تصل هذا المعنى بتتمة الآيات بعده، إذ الغاية والمقصد أن (ينصب المصطفى لتكاليف رسالته وأعباء منصبه، بلاغًا لرساله ربه، وجهادًا في سبيلها)[1].

۞ المبحث الرابع: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات ضمن سُور: العاديات، والبلد، والتكاثر:

المطلب الأول: دلالة السياق في سورة العاديات:

تفتتح المؤلفة كلامها حول سورة العاديات ببيان شامل لمضامينها وسياق آياتها، وهو اليوم الآخر، فتصور للقارئ بأسلوبها البياني الرصين مضامين السورة فتقول: (تبدأ بعرض مشهد سريع لغارة عنيفة مفاجئة باغتت القوم صبحًا، فلا ينتبهون إليها وإلا وقد توسطت جمعهم فبعثرتهم وسط عاصفة من النقع المثار. وتأتي هذه الصورة العنيفة بعد واو القسم، لافتة إلى ما عهد القوم من مثل تلك الغارات المفاجئة المصبحة، وما تحدث من بعثرة وحيرة وارتباك. ثم تأتي بعدها صورة أخرى لغيب غير مشهود، ولكنه واقع حتمًا: البعث يفجأ على غير موعد، فإذا هم في حيرة وبعثرة وارتباك، قد لفظتهم القبور لليوم الآخر كالفراش المبثوث، وإذا كان ما في صدورهم قد حصل، لم تفلت منه خافية مضمرة، مطوية في أعماق الصدر ومستكن الضمير)[2].

(١) المرجع السابق: (١/ ٧٤).
(٢) المرجع السابق: (١/ ١٠٣).

وسنقف بحول الله تعالى عند بعض الوجوه التفسيرية التي يتجلى فيها اعتمادها على دلالة السياق في الكشف عن معاني الآيات وترجيحها:

المراد بالعاديات الخيل أم الإبل؟

استوقف هذا الإشكال -الذي شغل العلماء و أئمة التفسير واختلفت أنظارهم حوله- المؤلفة في تناولها لمطلع السورة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾. وقد أوردت الاختلاف الحاصل، وخلاصته أن المفسرين على قولين:

الأول: يرى أن المقصود بالعاديات الخيل، وهو قول رُوي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. وأخذ به جماعة من المفسرين، منهم الطبري، والزمخشري، فقد فسرها بخيل الغزاة تعدو فتضبح.

وأما القول الثاني، فذهب إلى أنها الإبل، رُوي ذلك عن علي رضي الله عنه وعن ابن مسعود[1]. كما رُوي عن ابن عباس قوله: (بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل يسأل عن (العاديات ضبحًا) فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن (العاديات ضبحًا) فقال: سألت عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد؛ فكيف تكون العاديات ضبحًا! إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى مزدلفة إلى منى؛ قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه.[2]

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣٢/ ٢٥٨).
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣٣/ ٢٥٨).

وقد أوردت المؤلفة الرد على هذا القول، استنادًا إلى كون دلالة السياق في الآيات اللاحقة دالة على أن العاديات هي الخيل لا الإبل: (ورد أصحاب التأويل بالخيل بأن سياق الآيات بعده: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾... ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ يدل على أن العاديات هي الخيل، إذ لا يكون الإيراء، وهو قدح الشرر، إلا لسنابك الخيل. أما الخلف ففيه لين واسترخاء). كما رُد استشهاد أصحاب القول بالإبل بكون التعبير غير واضح لأن (السورة مكية ولم يكن ثَمَّ جهاد ولا خيل تجاهد، وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه وهي إبل الحاج)[1]، بأنه لا يلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل[2].

لكن بنت الشاطئ تنتقد على القائلين بأن العاديات هي الخيل، تخصيصها وقصرها على خيل الغزاة، كما قصرها القائلون بالإبل على إبل الحاج تنطلق من عرفة إلى المزدلفة ثم إلى منى. ودافعهم لذلك كما تؤكد هي (سيطرة فكرة تعظيم المقسم به)[3].

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (٧٥).

(٢) التفسير البياني: (١/ ١٠٤).

(٣) وهي فكرة توقفت عندها المؤلفة في جل السور المبتدئة بواو القسم، ومفادها أن القسم القرآني يحمل معنى التعظيم للمقسم به، وقد سادت هذا عند الأقدمين (فألجأتهم إلى اعتساف في بيان وجه التعظيم في كل ما أقسم به القرآن الكريم بالواو)، لكن الذي رأته المؤلفة بعد طول تدبر وتأمل في السور المستهلة بهذه الواو، هو (أن القسم بها يمكن أن يكون قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم، إلى معنى بياني، على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام عن أصل معناها الذي وضعت له، لملحظ بلاغي. فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتًا قويًا إلى حسيات مدركة، ليست موضع غرابة أو جدل، توطئة إيضاحية لبيان معنويات أو غيبيات لا تدرك بالحس)، وتزيد هذا الاجتهاد تأصيلًا وتوضيحًا فتقول: (فالقسم بالواو، في مثل (والضحى) غالبًا، أسلوب بلاغي لبيان المعاني، بالمدركات الحسية. وما يلمح فيه من الإعظام، إنما يقصد به إلى قوة اللفت. واختيار المقسم به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف. وحين نتتبع أقسام القرآن في مثل آية الضحى، نجدها تأتي لافتة إلى صورة مادية مدركة وواقع مشهود، توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مدركة، يماري فيها من يماري: فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس، وإذا يغشى، وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة. وهذا البيان المعنوي بالحسي، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو، فتقبلها دون تكلف أو قسر في التأويل). التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ٢٥-٢٦).

وتعضُد رأيها هذا بما يصرح به ابن القيم بأنه لا يلزم حتمًا أن نخص العاديات بخيل الغزاة، وإن كانت أشرف أنواع الخيل: (وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة، وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين، والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به العز والظفر والنصر على الأعداء) [(١)].

والذي يترجح إذن من سياق الآيات أن العاديات، هي الخيل، وتفسر بنت الشاطئ هذه الدلالة السياقية بما تسميه (جو السورة)، الذي يوحي بمشهد مثير، لغارة مفاجئة تصبح القوم بغتة على غير انتظار، ويؤكد موقف المباغتة هذا قصر الآيات بما فيه من حسم، وسرعة الانتقال، وتلاحق الأحداث ما بين العدو، وإيراء القدح، وإثارة النقع، إلى توسط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحًا، موريات قدحًا، مغيرات صبحًا، حتى تكون قد توسطت الجمع في النقع المثار.

كما استندت المؤلفة إلى دلالة السياق هذه في رد قول القائل بأن القسم بالعاديات لبيان عظمة الخيل وفوائدها[(٢)]، والحث على التسابق إلى قنيتها، والإغراء بفن السباق، وهو ما لا يناسب جو السورة من قريب أو بعيد.

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (ص ٧٧).

(٢) وهو كما أوردته: قول للشيخ محمد عبده في تفسيره، توسع فيه في بيان عظمة القسم بالخيل، يبين فيه أن الله تعالى أقسم بها «لينوه بشأنها، ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد، ليعودنا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها، ليكون كل واحد منهم مستعدًا في أي وقت كان لأن يكون جزءًا من قومة الأمة إذا اضطرت إلى صد عدو. وكان في هذه الآيات القارعات، وأشباه لها، وفيما ورد من الأحاديث التي لا تكاد تحصر، وما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس في عقائلها، وأن يكون في السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقانًا.....». تفسير جزء عم، محمد عبده: (ص١٤٢/ ١٤٣).

معنى " الخير " في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

للكشف عن دلالة الخير في الآية، تستعين المؤلفة باستعمالها القرآني واللغوي، ثم تربطها بسياق الآيات قبلها (السباق):

فتشير بدايةً الى أن لفظ الخير، أكثر ما يستعمل في القرآن بمعنى الأفضل، وقد أحصت من هذا الاستعمال نحو ١٢٥ مرة، وتعدد لنا أوجه وروده؛ إمَّا مقترنًا بلفظ «أم» المعادلة، أو تمييزًا، أو معطوفًا عليه بأفعل التفضيل.

وتتنوع صور مجيئه في القرآن: إما نقضًا للشر صراحة في مثل سورة الإسراء: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾، ويونس: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

أو مقابلًا بالسوء والضر: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنعام، وأما في اللغة فيحتمل أن يكون الخير للمال، والخيل، وضد الشر، والخيار والفضيلة[١].

ثم ترجِّح أن الخير في الآية هو الخير المادي من مال أو شبهه، وتستدل على هذا الاختيار بواسطة ربط الآية بما قبلها، وهو المسمى (السباق)، ذلك أن (سياق آية (العاديات) يرجح (أن الخير فيها هو الخير المادي من مال أو شبهه، فهذا الإنسان الكفور بنعمة ربه، والشاهد على نفسه بالكنود، لا يكون حبه للخير الذي هو فضيلة، وإنما هو حب للمال شديد) [٢].

(١) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ١١٤).

(٢) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن:(١/ ١١٤).

المطلب الثاني: سورة البلد:

- في تفسير معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢].

تنقل المؤلفة اختلاف العلماء والمفسرين في معنى (الحِل) في الآية، على أربعة أقوال:

- **الأول يقول:** إنه (من استحلال حرمة الرسول في البلد الحرام الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني).

- **والثاني:** إحلال الله لرسوله أن يفعل بمكة وأهلها ما شاء، وبه قال الزمخشري[(١)]. وروي عن ابن عباس وجماعة: معناه: وأنت حلال بهذا البلد، يحل لك فيه قتل من شئت[(٢)].

- **والثالث:** أنه من الإحلال وهو ضد الإحرام، وقد ذكره ابن القيم، وفسره بقوله (فهو حلال ساكن البلد بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن)[(٣)]

- **وأما الرابع:** فهو بمعنى الإقامة ضد الظعن، ذكره الراغب في

---

(١) قال في الكشاف: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، يعني: أنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك أنّ الله فتح عليه مكة وأحلها له، وما فتحت على أحد قبله، ولا أحلت له، فأحل ما شاء، وحرّم ما شاء.(٤/ ٧٤٥).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان: (١٠/ ٤٧٩).

(٣) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (ص ٣٦).

المفردات[1]، وابن القيم أيضا في التبيان، وأوضحه بقوله: (وإذا أريد معنى الحلول فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمرًا آخر وهو: الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده؛ فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه)[2]. ورجح هذا القول أيضا أبو حيان، و إليه ذهب بقوله: (ولا يدل قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ على ما ذكروه من أن المعنى يستحل إذ ذاك، ولا على أنك تستحل فيه أشياء، بل الظاهر ما ذكرناه أولًا من أنه تعالى أقسم بها لما جمعت من الشرفين، شرفها بإضافتها إلى الله تعالى، وشرفها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، فصارت أهلًا لأن يقسم بها)[3].

والذي توصلت إليه الدكتورة عائشة من خلال المعاني اللغوية والاستعمال القرآني أن[4] (الحل لغة، يحتمل أكثر الأقوال التي ذكرها المفسرون، فيكون من الحلول ضد الظعن، أو من الإحلال ضد الإحرام، أو من استحلال الحرمة وانتهاكها)، كما يجيء في القرآن بمعنى النزول، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ [الرعد: ٣١]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٥].

والذي ترجحه هو تفسير آية البلد بالحلول -وهو المختار عند أبي حيان- لأن معنى الإحلال ضد الإحرام ليس قريبا، والسياق لا يطمئن به، والأذهان غير متجهة إليه في هذا المقام. كما تستبعد أن يكون (حل) بمعنى

(١) المفردات، الراغب: (ص ٢٥١).
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (ص ٣٦).
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: (١٠/ ٤٨٠).
(٤) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ١٧٢).

إحلال الله لرسوله هذا البلد يفعل به بعد الفتح ما شاء؛ لظهور تكلفه، فضلًا عن كون الصيغة لا تقبل لغويًا أن يكون الإحلال من حل، وليس الاشتقاق. وتربط الآيات بلحاقها في إطار سياقها القرآني فترى أن (تفسير الحل بالإقامة وهو المعنى المتبادر، أو بجعل أذى الرسول حلالًا وهو أكثر استعمال القرآن للمادة، يبدو قوي الصلة بالآيات التالية، على وجه لا نضطر معه إلى تمزيق السياق أو الإبعاد في التكلف، وبخاصة حين تحمل آية ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] على الحالية، وهو ما ذهب إليه «أبو حيان»، وليس على الاعتراض كما قاله «الزمخشري»، وتابعه على ذلك الشيخ محمد عبده فقال: «واعترض بها بين العاطف والمعطوف؛ ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها في جميع الأحوال».)[1].

- في تفسير المراد من ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، و ﴿فِي كَبَدٍ﴾ عند قوله سبحانه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٣، ٤]. توقفت المؤلفة في هاتين الآيتين عند المعنيين التاليين: معنى (والد وما ولد)، و (في كبد)، وأبرزت أوجه اختلاف المفسرين في تأويلهما، ثم جاءت بترجيحها المبني على النظر في السياق فذكرت في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أن جمهور المفسرين على أن المراد بالوالد وما ولد (هو آدم وذريته)[2]، غير أن المؤلفة ساقت آراءهم المختلفة في تأويل معنى الوالد والولد، وهي على ضربين: العموم و الحصر. فمن الأول قول أبي حيان: (الظاهر أن قوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، لا يراد به معين، بل ينطلق على كل والد)، ورُوي عن ابن عباس أنه (على العموم يدخل فيه جميع الحيوان)، وبالعموم أيضًا قال الطبري، ورأى أنه غير جائز أن يخص

(١) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١/ ١٧٣).
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (ص ٣٥).

ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عَمَّه).

وأما الحصر فيه، قال الزمخشري: وخصه بمحمد ﷺ وأمته، كما ذكر أبو حيان أقوالًا عدة منها: ما رُوي عن «مجاهد» أنه (آدم وجميع ولده)، (وقيل والصالحين من ذريته. وقيل: نوح وذريته).

والاختلاف عمومًا هو كما وصفته الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها: (وهكذا يتسع عموم التنكير عندهم، حتى يحتمل جميع الناس والحيوان والنبات، ثم يتدرج في الضيق، حتى ينحصر في أحد الأنبياء عليهم السلام وأمته، أو الصالحين من ذريته وولده!) [1]. واختارت بنت الشاطئ العموم على تدبر الآية في سياقها، وهذا العموم (يفهم منه تتابع الأجيال من أهل طبقة بعد طبقة، وما توارثوا، ولدًا عن والد، من أحوال وأوضاع يستعظمها القرآن؛ فيقسم بها لفتًا إلى جسامة خطرها، ثم يتولى بيانها في آيات تالية. وفسرت وضع «ما» مكان مَن -التي هي للعاقل- في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ على أنه (لفت إلى أن المقصود هنا ليس أشخاصًا بذواتهم، وإنما الحديث عن تتابع الحياة وأجيالها على نمط واحد، وعن توارثها ولدًا وخلفًا عن سلف).

معنى (في كبد):

لم يختلف المفسرون في أن معنى الكبد في الآية الشدة، لكن أقوالهم شتَّى في تحديد هذه الشدة، و نسوق بعضها كما بينته المؤلفة:

فالزمخشري يقول: «لقد خلقنا الإنسان في مرض، هو مرض القلب وفساد الباطن»، [2] وعن ابن عباس قال: (يعني حمله وولادته ورضاعه

(١) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (١ / ١٧٤).
(٢) الكشاف، الزمخشري: (٤/ ٧٥٥).

وفصاله ونبت أسنانه وحياته ومعاشه ومماته كل ذلك شدة)، وذهب الشيخ محمد عبده إلى القول: (أنه في عناء من تصريف قواه في عمله، بل وفي أكله وشربه، وحماية أهله في سربه).

وتُسَلِّم المؤلفة بكل هذه الأقوال التفسيرية، غير أنها تتساءل: (ما وجه ارتباط القسم بـ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ بتلك الشدة التي خلق فيها الإنسان، والعناء المحتوم عليه من ساعة مولده إلى يوم القيامة؟ وفي هذا التساؤل ربط لآية ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ بما قبلها من آيات في السورة، أي: (سباق الآية).

لكنها قبل إيراد قراءتها الخاصة لمعنى الآية في سياقها واستنباط دلالته على معنى (الكبد) فيها، تنقل لنا تأويل الإمام الشيخ محمد عبده يعلل فيه وجه الارتباط بين الأمرين، حيث يقول: (إن الإنسان نوع من الوالد والمولود، فحق له أن يخلق في كبد وكدٍّ ونصب..... وما يصيب الرسول من تقريع المستحلين لحرمته، فهو من شأن الإنسان، وقَدَرٌ قُدِّرَ على كل مولود منه. وفيه من تسليته ﷺ عن ذلك الإيذاء ما هو ظاهر، وأن العناء الذي يلاقيه من اختصه الله بوحيه، هو العناء الذي يصيب الوالد في تربية ولده، والمولود في بلوغه الغاية من سير نموه)[1].

و تعقب على هذا التأويل الغريب في نظرها بكون (وجه الغرابة فيه أنه (يسوِّي بين أعباء الرسالة، وما يتحمله كل مولود من عناء النمو. قد رأينا أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب في التعميم إلى آخر مدى، فجعل (ما ولد) في الآية، لكل مولود من إنسان وحيوان ونبات، فهل يستوي حقًّا أعباء الرسالة الكبرى، و ما يكابده كل مولود من البشر. ودعك من بذور النبات وصنوف الحشرات والحيوان؟)[2].

(١) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: ١/ ١٧٧.
(٢) المرجع السابق: (١/ ١٧٨).

والذي ارتأته أن المكابدة هنا لا (تنصرف إلى ما ذكروه من مشاق الحمل والنمو والعيش والموت والحساب)[1]، أو ما ذهب إليه الزمخشري من تأويل بكونها (مرض القلب وفساد الباطن)، وإنما ترجح عندها في معنى الكبد في الآية أنه (ما هيئ له الإنسان بفطرته من احتمال المسئولية ومشقة الاختيار بين الخير والشر. ووجه ارتباطه بالقسم قبله -بحال أهل مكة وما اختاروا لأنفسهم من استحلال أذى الرسول وهو مقيم بالبلد الحرام- واضح ظاهر. وهو أوضح ارتباطًا بالآيات بعد. من ضلال الغرور بهذا الإنسان الذي وهب الله له وسائل الإدراك والتمييز)، و اعتمادها على نوعي السياق (سباق الآية ولحاقها) في ترجيح معنى الكبد هنا بين ظاهر.

۞ المبحث الخامس: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات في سورتي العلق والعصر:

المطلب الأول: سورة العلق:

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢].

تناقش المؤلفة في أثناء تناولها للآية بعض الذين اجتهدوا في تفسيرها و(اتجهوا إلى مجال البحث في علم الأجنة، والتمسوا المراجع الأجنبية لعلماء الفسيولوجيا والبيولوجيا، لفهم آية نزلت على النبي الأمي في قوم أميين لم يسمعوا قط، ولا سمع عصرهم، بعلم الأجنة). وتستدرك على هؤلاء عدم واقعية طرحهم إذ (غير متصور أن يكون القرآن الكريم قدم لهم من آيات ربوبية الخالق وقدرته، ما لا سبيل لأحد منهم إلى تصوره، فضلًا عن فهمه وإدراكه. وإنما فهموا من العلق ما تعرفه لغتهم وبيئتهم وعصرهم.. والعربية

(١) نفسه: (١/ ١٧٨).

قد استعملت العلق ماديـاً في كل ما يعلق وينشب: كالدم، والمحور الذي تعلق عليه البكرة، وعلقت المرآة حملت، ومعنويـاً في العلاقة تنشـب بين اثنين حبـاً أو بغضـاً، وفي الصلة تربط بينهما [١].

ولا يخفـى أيضًـا -كما بينتـه- أن العرب الذين نزل القـرآن بلغتهم (لم يكونـوا في حاجـة إلـى درس في علـم الأجنـة، أو مراجعـة كتـاب في المكتبة الأمريكيـة التي ظهرت بعدهم بقرون، ليفهموا آية خلق هذا الإنسـان من علق في أرحام الأمهات، وهم الذين ألفوا اسـتعمال: علقت المرآة، بمعنى حملت. واسـتعمال العلـق هنا، جمع علقـة، إيذان بما ذهبت إليه مـن إطلاق في عموم لفظ الإنسان..) [٢].

وربطًا لآية العلق بسياقها الذي وردت فيه؛ ترى بنت الشاطئ، أن باعتبار هذا السـياق والرجوع إليه يتبين أنه (لا يشير إلى أن القصد من ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢] توجيه المصطفى ومن يؤمنون برسالته إلى النظر في علم الأجنة، وإنما هي آية الله في هذا الإنسان، خلقه من علق، وخصه بالعلم، واحتمل أمانة التكليف، فازدهاه الغرور وأطغاه الشعور بوهم الاستغناء عن خالقه، فنسي أن إليه -سـبحانه- الرجعى والمصير.....وهذه هي قصة الإنسان، من المبدأ إلى المنتهى، تلفت إليه سـورة الوحي الأولى بإيجاز، توطئة لما سـوف يتتابع من آيات الوحي التي تزيد كل هذه الملامح المجملة تفصيلًا وبيانـاً.

وتستدل لهذا باستقراء ما ورد في القرآن من آيات بينات في خلق الإنسان، منها على ترتيب النزول:

(١) نفسه: (٢/ ١٨).

(٢) نفسه: (٢/ ١٨).

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴾ [الطارق: ٥ - ١٤].

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩].

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ [الكهف: ٣٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ [الحج:٥].

﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

ثم تقرر بعدا هذا الاستقراء لآيات الخلق في سياق القرآن الكريم عدم وجود أي ملمح أو إشارة للنظر في علم الأجنة أو علوم الأحياء، وهي بذلك تفند دعوى القائلين بكون الآية تنبيهًا إلى هذه العلوم قصد فهم مراد الآية، والحال أن جميع آي القرآن الكريم (ما من آية فيها، يؤذن سياقها بتوجيه إلى النظر في علم الأجنة وعلم الأحياء والتشريح، وإنما تأتي جميعًا في الاستدلال لقدرة الذي خلق الإنسان من علق، أومن نطفة أو من تراب، على النشأة الأخرى التي هي مدار الثواب والعقاب، ومناط ما يوجه إليه كتاب الإسلام من تكليف وبشرى ووعيد)[1].

(١) نفسه: (٢/ ١٩).

● **عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ٣]:**

نقلت المؤلفة تمييز بعض المفسرين -كما أورده الإمام الرازي- بين الأمر بالقراءة في الآية الأولى والثانية، ففي الآية الأولى يعني: "اقرأ لنفسك"، وهي في هذه الآية بمعنى التبليغ(١). يقول الإمام الرازي: (قال بعضهم: اقرأ أولًا لنفسك، والثاني للتبليغ، أو الأول للتعلم من جبريل، والثاني للتعليم، أو اقرأ في صلاتك، والثاني خارج صلاتك)(٢).

ثم بينت أن الأمر الإلهي المتكرر هنا إنما يفيد التأكيد بالقراءة، وهو ما يعين عليه ظاهر السياق: (والأولى أخذ السياق على ظاهره، بما يفيد من تأكيد الأمر الإلهي للمصطفى بالقراءة. وإذ كان لا يدري ماذا يقرأ، فقد تولَّى الوحي بيانه، فليقرأ باسم ربه الذي خلق.... وليقرأ وربه الأكرم) (٣).

المطلب الثاني: سورة العصر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

تبين بنت الشاطئ في مبدأ تناولها للسورة أن المفسرين اختلفوا في المراد بالعصر، فقيل هو الدهر، وهذا الذي اختاره الإمام الطبري في تفسيره(٤)، وهو أحد ثلاثة أقوال أحصاها الإمام الرازي، وهي: الدهر، والقول الثاني: صلاة العصر، وبه قال الزمخشري في الكشاف: (أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل

(١) نفسه: (٢/ ٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣٢/ ٢١٧).

(٣) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (٢/ ٢٠).

(٤) أورد رَحِمَهُ اللَّهُ أقوالاً عدة في معناها، منها ما ورد عن ابن عباس، في قوله: (وَالْعَصْرِ) قال: العصر: ساعة من ساعات النهار. وعن الحسن (وَالْعَصْرِ) قال: هو العشيّ. ثم عقب رَحِمَهُ اللَّهُ مرجحًا معنى كونه الدهر مطلقًا: (والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر (وَالْعَصْرِ) اسم للدهر، وهو العشيّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزِمه هذا الاسم، فداخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه..). جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢٤/ ٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ صلاة العصر، في مصحف حفصة [١]. وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**»، ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم). ويضيف الإمام الرازي قولًا آخر لأبي مسلم، في أن المراد بالعصر أحد طرفي النهار[٢].

وعقب إشارتها لهذه الأقوال الواردة في معنى العصر، تورد بنت الشاطئ عبارة الزمخشري في أن المراد هو صلاة العصر، وتراها أوجز وأقرب، من قول الشيخ محمد عبده: (وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر، ويتحادثوا ويتذكروا في شئونهم، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق، أو ما يؤذي به بعضهم بعضًا؛ فيتوهم الناس أن الوقت مذموم، فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان في نفسه ليس مما يذم ويسب، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة) [٣].

لكنها تنتقد هذا التأويل للعصر بوقت العصر، بقولها: (ولا نعلم أن هذا الوقت في المألوف والعادة وقت اجتماع الناس وتذاكرهم وتحدثهم. بل لعل وقت المساء أولى بهذا. ثم إن احتمال التحدث بما لا يليق وما يؤذي، لا يمكن في تصورنا أن يختص به وقت العصر دون غيره من الأوقات، وإنما هو مما يحتمل وقوعه في أي وقت من ليل أو نهار.

ثم ترجح أن المراد هو الدهر، كما ذهب إليه الطبري، وكما قال به ابن القيم أيضًا، وهذه عبارته: (والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار، وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة

(١) الكشاف، الزمخشري: (٤/ ٧٩٣- ٧٩٤).
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: (٣٢/ ٢٧٧-٢٧٨).
(٣) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (٢ / ٧٦).

العصر، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف) [١].

والذي يهمنا هنا هو استناد الدكتورة عائشة إلى دلالة السياق القرآني في ترجيح هذا القول، إذ اعتبرت سياق الآية في السورة (ملفتًا إلى ما يعتصر الزمن من خلاصة الإنسان، بالضغط والمعاناة، فيكشف عن خيره أو شره) [٢]، وهذا الذي يجعلها تطمئن إلى القول بأن المراد هو الدهر. ويعضُد هذا المعنى الراجح عندها، ما ذهبت إليه -معقبة على ما ساقته من الآراء والتأويلات التي ذكرها الإمام الرازي في عظمة العصر أي الدهر- من أن استقراء اللفظ في الاستعمال القرآني ينبئ عن استعمال العربية للعصر دلالة على الدهر، وسياقها في الآية يوافق هذا المعنى ويقتضيه. تقول -رحمها الله تعالى-: (ونخلص من هذا كله لنتدبر آية العصر بعيدًا عن فلسفة المتكلمين وتأويلات الإشاريين، فنرى في استقراء مواضع استعمال القرآن لمادة «عصر» ما يهدي إلى ملحظ إطلاق العربية العصر على الدهر، بما يعتصر من خلاصة الإنسان بالضغط والابتلاء. وبهذا الملحظ المألوف لدى العرب في عصر المبعث، والعربية لغتهم، تأتي كلمة العصر في سياقها من السورة، لافتة إلى ابتلاء الإنسان بالعصر الذي يصهره بالمعاناة ويعصره بالتجربة والابتلاء) [٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ - ٣].

تتوقف المؤلفة عند دلالة عبارة الإنسان، وعلاقتها بسياق آية العصر، وتقرر أنها باستقراء آيات الإنسان في القرآن وعددها خمس وستون آية، وجدت أنها تذكر في سياق الأهلية لاحتمال تبعات التكليف، والابتلاء بالخير والشر، والتعرض للغواية، وما يلابس ذلك من غرور وطغيان، كما أن الإنسان

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم: (ص ٨٤).
(٢) التفسير البياني، عائشة عبد الرحمن: (٢ / ٧٧).
(٣) المرجع السابق: (٢ / ٧٧- ٨٠).

في القرآن الكريم - لا الإنس - هو الذي اختص بالعلم، وبالبيان والجدل، وأنه الذي يتلقى الوصية ويحمل الأمانة. فشهد ذلك بأن الإنسان ليس مجرد فرد من الإنس أو الناس، وإنما مناط الإنسانية فيه معنوية، ترقى به من مجرد الإنسية البشرية، إلى حيث يحتمل تبعات التكليف والإدراك والرشد.

ولما كانت للفظة الإنسان دلالتها الخاصة على خصائص الإنسان وأهليته لاحتمال الإنسانية، بناءً على استقراء آيات الإنس والإنسان في البيان القرآني، وافقت سياق الآية في سورة العصر؛ لأنها أتت في سياق ما يحتمله الإنسان من تبعات التكليف ومسئولية الإنسان الفردية والاجتماعية[1]. وأما لفظ (الخسر) في الآية؛ فخلاصة ما وصلت إليه المؤلفة من الاستقراء في آيات القرآن، أنه يأتي بالمعنى الديني في الضياع، وسوء العقبى، مع ملحظ من معناه الأصلي في الصفقة الخاسرة لمن يشترون دنياهم بأخراهم فيخسرون الآخرة والأولى. لكنها تقيد هذا المعنى بقيد السياق، بقولها: (ما لم يعين السياق غير ذلك، كما في آيات المطففين والرحمن والشعراء، مع الوزن والكيل وبخس الناس أشياءهم)[2].

وهذا القيد هو الذي فات الإمام الراغب الإشارة له، كما تقول: (وهذا الاحتياط هو ما فات «الراغب» حين قال في (المفردات): ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، يجوز أن يكون إشارة إلى تحرّي العدالة في الوزن، وترك الحيف فيما يتعاطاه في الوزن، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به ميزانه في القيامة خاسرًا، فيكون ممّن قال فيه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٩]، وكلا المعنيين يتلازمان، وكلّ خُسْران ذَكَرَه الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلّق بالمقتنيات الدّنيويّة والتّجارات البشريّة)[3].

(١) نفسه: (٢ / ٨٢).

(٢) نفسه: (٢ / ٨٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب (ص ٢٨٢).

الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة التي سعى فيها الباحث إلى استقراء وتتبع معالم و مناحي إعمال المؤلفة لقرينة السياق القرآني واعتبارها في توجيه وترجيح وبيان معاني الآيات، يمكن أن نخلص للنتائج والخلاصات التالية:

أولًا: عناية الدكتورة عائشة بدلالة السياق القرآني في تفسيرها للآيات وتناولها لجميع السور التي اشتمل عليها كتابها بجزأيه؛ يدل على أهمية ومركزية اعتبار الدلالة السياقية في منهجها التفسيري، و يزداد هذا المعنى وضوحًا حين نجد اعتمادها الكثير والمطرد على قرينة السياق في الحجاج ومناقشة أقوال المفسرين، وقبول أو رفض بعضها، تبعًا لانسجامها أو مخالفتها لصريح السياق مقاليًا كان أو مقاميًا، ويدل على ذلك عبارات كثيرة من مثل قولها: (وهو ما يأباه السياق)،أو (مما لا يحتمله المقام)، أو (ملائم لجو الموقف).

ثانيًا: تتعدد أنواع السياق القرآني في كتاب التفسير وتتنوع تبعًا لموضوع السورة ومقتضى الآيات المتناولة، وفي ضوء ما وقفنا عليه يتبين أن هذا التنوع يخدم المعنى المراد ترجيحه أو بيانه، ولا تناقض ولا تنافر بين نوع السياق القرآني المستدل به من لدن المؤلفة والمعنى الذي تشير إليه الآية، بل السياق مؤيِّد ومرجِّح له، وملتئم معه تمام الالتئام وغاية الانسجام.

ثالثًا: للسياق القرآني في تفسير بنت الشاطئ أدوار كثيرة منها: الترجيحي، والتعليلي، والحجاجي، وتخدم جميعها منهج المؤلفة وأطروحتها السياقية في تفسير الآيات، وقد تبين اعتمادها الكثير عليها في توجيه أقوال

المفسرين وردِّ بعضها ورفضه، كما تبين أثرها في توجيه معنى الآية بما ينسجم مع مقتضاها وما تحتف به من قرائن سابقة (سباق الآيات أو ورد ما قبلها)، أو لاحقة (لحاق الآيات أو ورد ما بعدها).

رابعًا: يمكن أيضا ملاحظة أمر مهم في أثناء الحديث عن الخلاصات المستفادة من هذه الدراسة؛ وهو غنى المصادر المعرفية والمناهل العلمية عند المؤلفة في بناءها للحجة السياقية للآيات: فهي تنطلق من الاستعمال القرآني للفظ، وتنهل من آراء كتب اللغة العربية، و تأخذ من أقوال المفسرين وآراءهم، كما تستعين أيضًا بأسباب النزول وترتيب السور حسب ذلك، وكل هذا مما يقوي حجتها البيانية في توجيه معاني الآيات وربطها بالقرائن والسياقات.

وانتهاءً، فإني لا أدَّعي الإحاطة الكاملة، أو الدراسة الشاملة لمفهوم السياق القرآني وأثره في التفسير ضمن هذا الكتاب القيم للدكتورة عائشة، وحسبي أني قدمت نَزْرًا قليلًا وعملًا ضئيلًا، لاريب أنه محتاج إلى التصويب ويُعْوِزه التسديد والترشيد و التجويد، حتى يصير شيئًا مذكورًا، وعملًا مبرورًا، ينقلب به صاحبه إلى أهله فرحًا مسرورًا.

وإنْ تَجِدْ عَيبًا فَسُدَّ الخَلَلا فَجَلَّ مَنْ لا فيهِ عَيبٌ وَعَلا[1]

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

والحمد لله رب العالمين

.....

(١) ملحة الاعراب، أبو القاسم الحريري، (ص ٤٨).

المصادر والمراجع

١. عروي محمد إقبال. دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية مراجعة منهجية. الطبعة الاولى، الكويت، روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، ٢٠٠٧.

٢. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي. الموافقات. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. الطبعة الأولى، دار ابن عفان، ١٩٩٧م.

٣. البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٤. أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، أعمال الندوة الدولية للرابطة المحمدية للعلماء، أيام ٢٦/ ٢٧/ ٢٨ يونيو ٢٠٠٧.

٥. المطيري عبد الرحمن. السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير. رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٨.

٦. سلطان العلماء أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم الدمشقي. الإمام في بيان أدلة الأحكام. تحقيق: رضوان مختار بن غربية. الطبعة الأولى، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر سنة، ١٩٧٩م.

٨. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري. التوقيف على مهمات التعاريف. الطبعة الأولى، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠م.

٩. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الطبعة الثامنة، بيروت -لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥ م.

١٠. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الطبعة الرابعة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

١١. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار). دار الدعوة.

١٢. أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي. جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠ م.

١٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. الطبعة الثانية: دار طيبة للنشر والتوزيع. ١٩٩٩م.

١٤. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

١٥. أبو جعفر النَّحَّاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي. إعراب القرآن. وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤٢١هـ.

١٦. عبد الوهاب رشيد صالح. دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم. السلسلة السياقية القرآنية (رقم ١). الطبعة الثانية، دار عمان للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.

١٧. شمس الدين ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. الأمثال في القرآن. تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد. الطبعة الأولى، مصر: مكتبة الصحابة ١٩٨٦م.

١٨. العلاونة محمد. العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم. الطبعة الاولى، بيروت: دار البشائر الاسلامية، ٢٠١١م.

١٩. الدكتورة عائشة عبد الرحمن. كتاب مع المصطفى ﷺ. دار المعاف، ١٩٩٢م.

٢٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على. لسان العرب. الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

٢١. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري. مفاتيح الغيب والتفسير الكبير. الطبعة الثالثة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٢٢. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٣. الشيخ محمد عبده. تفسير القرآن الكريم، جزء عم. الطبعة الثالثة، مطبعة مصر، ١٣٤١هـ.

٢٤. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. مفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. الطبعة الرابعة، دار القلم – الدار الشامية، ٢٠٠٩.

٢٥. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. التبيان في أقسام القرآن. تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة.

٢٦. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم. دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير: دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير الطبري. أطروحة دكتوراه، نوقشت سنة ١٤٢١هـ، كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالسعودية.

٢٧. المطيري أحمد. دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطي: دراسة موضوعية تحليلية. رسالة ماجستير في التفسير، كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.

٢٨. تهاني بنت سالم باحويرث. أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني: دراسة نظرية تطبيقية على آيات قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. رسالة مقدمة لنيل درجة الماستر، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، ٢٠٠٧م.

٢٩. أبو القاسم الحريري البصري. ملحة الأعراب. مطبوعات أسعد الحبال وأولاده، جدة.

٣٠. محمد حسين الذهبي. الإسرائيليات في التفسير و الحديث. الطبعة الرابعة، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٠م.

المجلات والمواقع الإلكترونية:

١. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد الثاني (٢٠١٠)، كلية الآداب جامعة البصرة. مقالة بعنوان: (السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني)، د. خليل خلف بشير العامري.

٢. المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، تأليف أعضاء ملتقى أهل الحديث، على شبكة الانترنت.

فهرس الموضوعات

مستخلص البحث ٧٩

المقدمة ٨٣

الفصل الأول: دلالة السياق القرآني: مفهومها وأنواعها ٩١

المبحث الأول: مفهوم دلالة السياق القرآني لغةً واصطلاحًا ٩١

المبحث الثاني: أنواع دلالة السياق القرآني ٩٨

الفصل الثاني: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات من خلال كتاب (التفسير البياني) للدكتورة عائشة عبد الرحمن ١٠١

المبحث الأول: التعريف بكتاب (التفسير البياني) ١٠١

المبحث الثاني: أنواع السياق القرآني و أدواره في تفسير الدكتورة عائشة عبد الرحمن ١٠٧

المبحث الثالث: أثر السياق القرآني في توجيه معاني الآيات ضمن سورتي الضحى، والشرح ١١٥

المبحث الرابع: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات في سُور: العاديات، والبلد، والتكاثر ١٢٦

المبحث الخامس: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معاني الآيات في سورتي العلق، والعصر ١٣٦

الخاتمة ١٤٣

المصادر والمراجع ١٤٥

فهرس الموضوعات ١٤٩

TADABBUR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

Number6; Ragab 1440 AH, corresponding to March 2019

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **Contraries method in Surah Ar-Ra'd.**
  An analytical study
  By: Prof. Dr. Ahmed M. Al Shargawi
- **The implication of the Qur'anic context and its impact on directing verses' meaning through the book "Rhetorical Exegesis of the Holy Qur'an" by Prof. Aisha Abd al-Rahman (Bint al-Shati').**
  By: Mr. Ahmed Ba'zid Bara'ak Allah
- **Quran's protection of intellectual awareness among youth Under the challenges of modern means of communication**
  By: Prof. Mohammed Abdel-Deim Al Sulimani Al-Tuni
- **The implications and purposes of the term (Gladness) in the Holy Quran.**
  (Applied research)
  By: Mrs. Basma A. Matran
- **Verbs of creation and existing and their implications in the Holy Quran**
  By: Dr. Al Amer M. Abu Aisha
- *A report on a scientific thesis entitled:*
  Proficiencies of contemplation of Holy Quran among teachers of Quran in the preparatory level and challenges of their use.
  By: Khalid I I Al-Sahimi
- **A report on Maknon Institute for female teachers of Quran "Tadabbur"**
- **A report on the 8th Annual International Qur'anic Conference. (Maqdes 8)**
  With the slogan: "Gratifying humans with the light of Quran"

25 SR